صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
شارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٢٧٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ١٠٢٥ « الاثنين ٩ جمادى الآخر سنة ١٣٧٢ — ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٣ — السنة الحادية والعشرون

فهرس العدد

الرسالة تحتجب!

فى الوقت الذى كانت (الرسالة) تنتظر فيه أن يحتفل أصدقاؤها وقراؤها، وأولياء الثقافة والصحافة فى وادى النيل، وزعماء الأدب والعلم فى أقطار الشرق، بانقضاء عشرين سنة من عمرها المبارك المثمر؛ وفى الوقت الذى أشرق فيه على مصر صباح الخير بثورة الجيش الظافر، بعد ليل طال فى الظلام، وعرض فى الضلال، وعمق فى الهول؛ فاسفر وجه العيش، وافترّ ثغر الأمل، وشعر كل مصرى فى ظلال العهد الجديد أن وجوده إلى سمو، وعمله إلى نمو، وأمره إلى استقرار؛ نعم فى هذا الوقت الذى نشأ فيه لتوجيه الإرشاد وزارة، ولتنمية الإنتاج مجلس، ولتعميم الإصلاح خطة، تسقط (الرسالة) فى ميدان الجهاد الثقافى صريعة بعد أن انكسر فى يدها آخر سلاح، ونفد من مزودها آخر كسرة؛ فكأنها جندى قاتل اليهود فى فلسطين على عهد فاروق، أو فدائى جاهد الإنجليز بالقناة فى حكومة فاروق! ولكن فاروقا دال ملكه وزال حكمه، فبأى سبب من أسباب الفساد يؤتى المجاهد من جهة أمنه لا من جهة خوفه، ويقتل بيد شيعته لا بيد عدوه؟

تموت الرسالة اليوم فى ضجة من أناشيد النصر فى مصر، وأهازيج الحرية فى السودان، فلا يفطن إلى نزعها هاتف، ولا يصغى إلى أنينها منشد! ومن قبل ذلك بشهر ماتت أختها (الثقافة) وكان الناس يومئذ فى لهو قاصف من مهرجان التحرير، فلم تبكها عين قارئ، ولم يرثها قلم كاتب! كأن عشرين سنة للرسالة، وست عشرة سنة للثقافة قضتاها فى خدمة الأدب والعلم والفن والإسلام والعروبة لم تهيئ لهما مكانا فى الوجود، ولم تنشئ لهما أثرا فى الخواطر! وكأن هاتين المجلتين اللتين أنشأتا فى أدب العصر مدرستين نشئ فيهما جيل، وابتدأت بهما نهضة، واجتمعت عليهما وحدة، لم تكونا إلا ورقا مما ينشر فى الطريق للاعلان، يجيء به الموزع وتذهب به الريح!

وما أحب أن أحمل تبعة ما أصاب الرسالة والثقافة على زهادة الناشئين فى الأدب الجد، ولا على فشل المعلمين فى تعليم القراءة؛ فإنا اخترنا هذا النوع من الصحافة ونحن نعلم مايعترضه من عوائق، وما يكتنفه من مكاره، أقلها هذه الأمية المدرسية التى تقنع من الثقافة (بفك الخط) وقشور العلم، فلا تهيئ المصاب بها إلا للقراءة السهلة الضحلة، ليرى نكتة تملأ فمه بالضحك، أو صورة تدغدغ جسده بالشهوة!

اخترنا هذا النوع من الصحافة المجاهدة المستشهدة، ووقفنا بالرسالة على الأعراف بين آخر النقص وأول الكمال، تأخذ بيد الأدنى ليصعد، وتثبت قدم الأعلى ليستمسك؛ ثم تدفع المرتفع صعدا فى السماء ليكون باستمداده أقرب إلى الحق المطلق والخير المحض والجمال الكامل.

وبحسبنا أن يصحبنا فى هذا الطريق من تهيئهم فطرهم السليمة لبلوغ الغاية منه، وهم بحكم الندرة فى الكمال والكرم قلة. ومن السهل القريب أن تصلح القلة لتصلح الكثرة، وأن ترفع الخاصة لترفع العامة. وليس وراء القلة مال يبتغى ولا جاه يرجى؛ وإنما سبيل المال والجاه لمن أرادهما، العامة يستميلها بالتهريج، والسياسة يستغلها بالدجل، والحكومة يستدرها بالملق. والعدة إلى ذلك يسيرة المنال: حنجرة صلبة تخطب، ويراعة مداهنة تكتب، ونية فاسدة تملى! ولو أرادت (الرسالة) زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع وقلمها للايجار. ويومئذ تتحول أكداس الورق فى مطبعتها العجيبة من أوراق طبع إلى أوراق نقد!

ولكن الله الذى يحبب فى سبيله إلى المجاهد الاستشهاد وليس فى مزوده إلا حفنة من سويق أو قبضة من تمر، حبب إلى (الرسالة) الجهاد فى الميدان المجدب الموحش ولا عدة لها إلا الصدق والصبر والزهد، لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز، أو بأجر الشهيد إذا قتل!

إنما التبعة فى خذلان الرسالة والثقافة على الحكومة بوجه أعم، وعلى وزارة المعارف بوجه أخص.

كانت الحكومات الحزبية لا رحمها الله تخاف ولا تختشى. كانت تبذل العون فى صوره المختلفة للمجلات التى تعارض لتسكت، وللمجلات التى تؤيد لتقول. أما الصحف التى لا تملك لها نفعا ولا ضرا فى سبيل الحكم والغنم، فكانت لا تلتفت إليها إلا كما تلتفت إلى الشعب المسكين: تأمره ليطيع، أو تسخره ليعمل. وما كانت طاعته أو عمله فى رأيها إلا واجبا مفروضا لا شكر عليه ولا أجر له!

ومن عدلها الذى أخجل عدل عمر أنها أرسلت إلى الرسالة مأمور الضرائب الذى ترسله إلى الجرائد العظمى، والمجلات السياسية الكبرى؛ فلما رأى إيرادها ثلاثة أرقام وربحها رقما أو صفرا، أخذه الدهش، وملكه العجب، وقال بلهجة المستنكر: كيف يكون إيراد المصور وأخبار اليوم وروز اليوسف كـــذا متعددة، ويكون إيراد الرسالة كذا واحدة؟! لابد أن يكون السجل ناقصا والدفاتر مزورة! ورفض المأمور الذكى الدقيق الوثائق وعمد إلى التقدير الجزاف، فصال وجال، وتخيل ثم خال، وفرض فيما فرض أن فى كل عدد من أعداد المجلة خمسين إعلانا على التقدير الأقل، أجرتها فى الأسبوع كذا، وفى

السنة كذا ؟ فلما نبهته عيناه اللتان فى رأسه إلى أن كل عدد لايزيد ما فيه على إعلانين فى الواقع ، أمرها ألا تدخلا فيما لا يعنيهما ! ومضى بسلامة الله يكره القواعد الأربع على أن (نعمل له حسابا) كما فكر وقدر ، حتى بلغت جملة ما على الرسالة لمصلحة الضرائب : (٢٤٨٥٥) جنيها فى سبع سنوات ! فكم كان الربح إذن ! وهالت أرقام هذا التقدير (لجنة التقدير) فخفضتها إلى (١٢٦٠٧) بالتقدير الجزاف أيضا . ثم حجزت على المطبعة والدار ، وأمرتنا بتنفيذ هذا القرار ! ولما لجأنا إلى القضاء عوقه محاموها سنتين عن الفصل ، ومازالوا يعوقونه بالتأجيل العابث ، والمصلحة لاتكترث ولا تهتم مادامت تطالب وتهدد ، والممول يسارع ويسدد !

ثم كانت الحكومة تبعث إلى الرسالة ببعض الفتات من إعلانات الوزارات فى حدود الفائض من الصحف المؤيدة . فلما نقصت الموارد وضاقت الميزانية قصوا الأطراف الزوائد من (المصروفات) فكان منها على زعمهم نصيب المجلات الأدبية !

أما التبعة التى على وزارة المعارف خاصة فهى أثقل من أن يحملها ضمير مسئول . كانت هذه الوزارة ولا تزال تمين المدارس الحرة ، وتمون المكتبات العامة ، وتمول الفرق التمثيلية ، وتدير الجامعة الشعبية ، وتعنى بألوان الثقافة على الجملة . ولكنها — واعجبا — لم تدرك إلى اليوم أن المجلة الأدبية الجدية مدرسة متنقلة ، تدخل كل مكان فى أى بيئة ، وتعلم كل إنسان فى أى سن ، وتفعل مالا تستطيع أن تفعله الوزارة نفسها من إحياء اللغة ، وإنهاض الأدب ، وتبسيط العلم ، وتعميم الثقافة ، وتوجيه الرأى ، وتأليف القلوب ، وتوحيد العرب ، والسفارة بين مصر وأقطار العروبة ، والتمكين لزعامتها الفكرية فى بلاد الشرق . فلو أنها أدركت ذلك لأعانت المجلات الأدبية على أداء رسالتها ببعض ما تمين به معاهد التعليم ومسارح التمثيل ومراكز الثقافة ؛ ولكنها — واأسفا — لم تدرك منذ العام الماضى إلا أن اشتراكها فى خمسمائة نسخة لمدارسها ومكتباتها من الرسالة والثقافة ، هو الذى أثقل كفة المصروفات فى ميزانية التعليم فألغته لتعتدل الكفتان ! وبهذه القشة المباركة قصمت ظهر البعير !

* * *

كانت الرسالة منذ فحش غلاء الورق ، وفدحت نفقات الطبع ، تكفى نفسها أو تخسر قليلا . وكنا نواجه هذه الحال بالتعفف والتقشف والصبر فتنساغ مرارتها أو تخف . فلما شاءت الضرائب ألا نعقل ، وأرادت الحكومة ألا نعلن ، وقررت المعارف ألا تشترك ، أخذت الخسارة تنمو وتطرد حتى بلغت فى العام المنصرم ألفا ومائة وعشرين جنيها . فرأينا فى مطلع هذا العام أن نقوى الرسالة لتصمد ، وأن نعيد (الرواية) لتساعد ، فإذا بالخسارة تتسع ، وبالطاقة تضيق ، وبالأزمة تشتد ، وبالأمل يضعف ؛ فلم نجد بدا من الإذعان لمشيئة القدر !

لقد قلنا يوم بلغت الرسالة عددها الألف أو عامها العشرين : « إنا نطمع فى فضل الله أن تزيد الرسالة قوة فى عهد مصر الجديد : وما تسأل الرسالة العون إلا من الله ، فقد عودها جل شأنه ألا تفزع إلا إليه فيما يحزب من أمر وفيما ينوب من مكروه . ولعل السر فى بقائها إلى اليوم على ضعف وسيلتها وقلة حيلتها ، أنها عفت عن المال الحرام فلا تجد لها اسما فى (المصروفات السرية) ، ولا مقالا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفا من الإعلانات اليهودية

وإذا لم يكن للفضيلة رواج فى عهد غرق فيه (القصر) فى الفحش والنكر والبغى والاغتصاب والاستبداد والقتل ، وارتطمت فيه (الحكومة) فى الاختلاس والغش والخيانة والرشوة والمحاباة والختل ، فإنا لنرجو أن يكون لها من السيادة والعوز نصيب ، فى عهد يتولى الأمر فيه بإذن الله محمد نجيب »

ولكن القضاء غالب . والرجاء فى الله أولى . ولكل أجل كتاب . ولكل سافرة حجاب . ولكل بداية نهاية !

احمد حسن الزيات

الحكم في الإسلام

جمهورية مدى الحياة

للأستاذ علي الطنطاوي

يا أهل مصر . هذا هو الطريق فاذا التردد بين الاقدام والإحجام ؟ لماذا تقدمون رجلا نحو (الجمهورية) وتؤخرون أخرى ؟

إن هذه (الملكية الوراثية) بدعة في الإسلام ابتدعها سيدنا معاوية ، غفرها الله له ، تخالف بها عن طبيعة العرب التي طبعهم الله عليها ، وشريعة الإسلام التي شرعها الله لهم ، وأحالها كسروية قيصرية ، وقد كانت بكرية عمرية ، وجعلها ملكية بغي واستبداد ، وقد كانت خلافة عدل ورشاد

بدعة جرت ذيلها على تاريخنا ، فمحت كثيراً من فضائله ، وخلفت فيه رزايا وبلايا ، صيرته مثل تواريخ الأمم ، وقد كان تاريخنا ما ولدت أم التاريخ قبله ، ولن تلد بعده تاريخا يساويه أو يدانيه . كان تاريخ خير وبر وعدل وإحسان ، تاريخ قوم هم لباب البشر ، وهم خلاصة الناس ، وهم هداة الدنيا ، وهم ملائكة الأرض

أفسدت تاريخنا على صلاح الزمان ، وأضاعت دنيانا على قوة الدين ، وأذكت في النفوس غرائز البغي وطبائع الشر على قرب العهد بالإسلام ، فكيف بنا اليوم والزمان فاسد ، والدين ضعيف ، والعهد بعيد ، والقلوب قاسية ، والمنكرات فاشية ؟

مالنا نجرب المجرب ومن جرب المجرب حلت به الندامة ؟ وتعود فنمد أيدينا إلى الجحر الذي لدغنا منه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! ونرجع إلى الهاوية فنتردى فيها بعد أن أنقذنا الله منها ، ولما نكد !

أنتبع الإسلام ، ثم نأتي بما ينكره الإسلام ؟

***

إن الحكم في الإسلام جمهورية انتخابية تدوم مدى الحياة ، ما لم يبدل الرئيس أو يتبدل ، فنستبدل به .

وإن دعائم الحكم في الإسلام هي الانتخاب الصحيح(١) ، والديمقراطية الصادقة ، والرقابة الدائمة

ولا عبرة بقول من أخذ من الفقهاء بظواهر الأمور ، بلا نفاذ إلى بواطنها ، وأمسك بطرف المسألة وترك أطرافها ، فقال بأن الخليفة تثبت خلافته بانتخاب النفر من أهل الحل والعقد — أخذا من انتخاب أهل السقيفة أبا بكر ، أو بالعهد استنادا على عهد أبي بكر لعمر ، فان أبا بكر ما صار خليفة إلا بالبيعة العامة ، ولو خالف عليه أهل قطر من الأقطار لما كان لهم (على الحقيقة) بخليفة — إلا أن يكونوا خارجين على إرادة الأكثر فيعاملوا معاملة الخارجين . وإن عمر لم يستخلف بعهد أبي بكر بل بالبيعة ؛ وخلاصة ما جاء في بيعته من النصوص — هو ما جمع في كتابي (أبو بكر الصديق) الذي طبع في دمشق من نحو ثماني عشرة سنة

وفيه أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس إليه ، فقال :

— إنه قد نزل بي ما ترون وما أظنني إلا ميتا ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فانكم إن أمرتم في حياة مني ، كان أجدر ألا تختلفوا بعدي

فقاموا في ذلك ، فلم يستقم لهم أمر ، فرجعوا إليه ، فقالوا :

— رأينا يا خليفة رسول الله رأيك

— قال : فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده

ثم إنه دعا بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف — فقال له : أخبرني عن عمر بن الخطاب

— قال له : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني

— قال : وإن !

— قال : هو والله أفضل من رأيك فيه

(١) لا الانتخاب المزور الملفق ، ولا هذا الانتخاب الأعمى البرلماني

ثم دعا عثمان، فقال له مثل ذلك. فقال:

— على به أن سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله

ثم شاور سعيد بن زيد وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار — فقال أسيد:

— اللهم، اعلم الخيرة بعدك. يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه

عند ذلك كتب العهد المعروف وخرج به عثمان على الناس مختوما، وأشرف أبو بكر من كوته على المسجد (وقد كان هو البرلمان الإسلامي)، فقال:

— يا أيها الناس إني قد عهدت عهدا، أفترضونه؟

— فقال الناس، رضينا، وقام على فقال:

— لا نرضى إلا أن يكون عمر!

— قال: إنه عمر!

فأقروا بذلك جميعا ورضوا به ثم بايعوا ... (إلى آخر ما جمعت في الكتاب، من أخبار هذا الباب.) والستة الذين سماهم عمر، لم يكونوا إلا لجنة استشارية، عملها تنظيم المرشحين، والعمل على فوز مرشح واحد بالتزكية وهذا ما فعله عبد الرحمن، وما ثبتت خلافة عثمان إلا بالبيعة

فالبيعة هي الدعامة الكبرى في الحكم الإسلامي، ولم يستطع الخلفاء المستبدون، في أكثر العصور ظلما، وأشدها ظلاما، أن يهدموا هذه الدعامة، فكانت البيعة هي الأساس، وإن تحولت، كما تحولت أكثر حقائق الإسلام عند أكثر المنتسبين إليه — من جسد وروح، ومظهر وجوهر، إلى أجساد ومظاهر فقط

أما الديمقراطية الصادقة، فهي الدعامة الثانية؛ فالخليفة ليس أفضل الأمة ولكنه أكثرها عملا، وليس المالك لرقابها ولكنه أجيرها، ولا يمتاز دونها بمطعم ولا ملبس ولا مسكن. هكذا كان الخلفاء الأولون، قبل أن تصير الخلافة ملكا، وهذى خطبهم و(تصريحاتهم)، وهذى سيرهم وأعمالهم، شاهدة على أكثر مما نقول:

والدعامة الثالثة الرقابة. كل فرد من الأمة شرطي يراقب الحاكم، يطيعونه ما أطاع الله، ويقومون بأمره ما أقام الدين. إن أحسن أعانوه، وإن نسي ذكروه، وإن اعوج قوموه. وكان عمر يتمنى أن ينصب الناس أميرا إن استقام أطاعوه، وإن جنف قتلوه

قال له أحد الصحابة (نسيت اسمه (٢)):

— أفلا قلت: عزلوه؟

— قال: لا. القتل انكى لمن بعده!

* * *

ونحن لا نبالي إن اجتمعت لنا هذه الخلال في رجل: البيعة والديمقراطية والاستقامة، أن يسمى رئيسا أو ملكا أو إماما أو أمير المؤمنين. هي اصطلاحات لا تقدم ولا تؤخر، لكن منها ما يخف على الأذن سماعه، وعلى القلب احتماله، كاسم الرئيس، ومنها ما يشعر الظلم والاستبداد والعبودية والمذلة، كاسم الملك

أما وراثة الحكم، فلا تجتمع مع الإسلام في دستور. أيرث الولد ملك رقابنا، نحن الشعب كله، كما يرث الأبن بقرات أبيه وعنزاته؟ أعوذ بالله! وهل بعد هذا مهانة أو ذل؟

إنه لا شيء أثقل على نفوس الناس، ولا أفسد لنفس صاحبه من ولاية العهد. أنخضع رقابنا، وننحني جباهنا لطفل يحدث في لباسه؟ لماذا بالله؟

ألأنه خرج من فم أمه أو من أذنها، وسائر الناس يخرجون من حيث يخرج سائر الناس؟ أخلق الناس من ماء وطين، وخلق هو من الحليب (٣) والشكولاتة؟

(٢) والخبر في كتابي (عمر بن الخطاب) ولكن ليس الكتاب تحت يدي الآن

(٣) الحليب من العامي الفصيح

أله دماغان فى رأسه — وأربعة عيون فى وجهه — ويطير بجناحين ، لا يمشى كالناس برجلين ؟

لقد ألف الناس الخضوع للرجل القوى الأمين ، أما الخضوع لطفل ، أمثاله يؤمرون فيطيعون ، ويؤدبون فيضربون ، أو لامرأة ، فشىء لم نألفه ، وما نألفه أبدا

يقولون إن الملك رمز ، كملك الإنكليز يملك ولا يحكم والجواب ، إنه ليس فى الإسلام رئيس يملك ولا يحكم ، بل الرئيس فى الإسلام يحكم (بحكم الله) ولكن لا يملك ؛ لأن الناس فى نظر الإسلام أحرار لا يملكهم أحد

الرئيس عندنا هو الذى يجتهد فى وضع الشرائع مستنبطة من أصولها ، وهو الذى يقضى القضاء ، وهو الذى يدير الإدارة ، وهو الذى يقود الجيش ، وله أن يوكل عنه من تتحقق أمانته ومقدرته ، أى أن أقرب الأنظمة اليوم إلى نظام الإسلام ، جمهورية كجمهورية أميركا ، على أن تكون مدى الحياة

وفى مقابلة هذا السلطان ، لا يمتنع الحاكم على انتقاد ولا يترفع عن نصح ، ولا يكون له فى القضاء ما ليس للناس . وليس فى الإسلام تهمة القدح بالذات الشاهانية ، ولا محاكم خاصة للملك وأهله ، بل ليس لأهل الملك ميزة أبدا ، ولا يأخذون من مال الدولة ، أو ينالون من خيرها فضلا [٤] عن آخر فرد من الأمة

وليس للحكم طبقة ولا قبيلة . وما ورد من أن الخلافة فى قريش ، هو أولا حديث معارض بحديث عمر : لو كان حذيفة حيا لوليته . وحذيفة كان مولى ؛ وحديث : لو ولى عليكم عبد حبشى ··· وهو ثانيا حديث مبتور له تتمة ، والقاعدة عندهم ، أن الزيادة من العدل مقبولة ، وتتمته : ما أقاموا الدين

وطبيعة الإسلام تنافى هذا الحديث إلا أن يكون المراد منه غير عموم لفظه ، فالقيم فى الإسلام معنوية ، ولا عبرة بالانساب أبدا . والشريف هو الشريف بعمله لا بنسب إلى الرسول ، هو على الغالب نسب ملفق مكذوب كأكثر أنساب (الأشراف ···) اليوم . والنبى يقول لبنته فاطمة سيدة النساء : يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا

وهذا الحديث إن صح ، يدل على أن القرشية تكون من أسباب الترجيح ، إن استوى مرشحان للخلافة فى خلال الخير كلها وكان أحدهما من قريش

وإلا فأين قريش اليوم ؟ وأين غير قريش من قبائل العرب ؟ لقد تغيرت الدنيا ، وتبدل الزمان ، وشريعة الرسول لكل زمان ومكان . ولو أن الرسول قال هذا الحديث حقا ، وبعث اليوم من رووه عنه لما فهموا منه مايفهمه اليوم من يفكر بعقول فقهاء الظاهرية ، وهم أضيق الفقهاء فكرا ، وأقربهم نظرا ، وأبعدهم عن درك مقاصد الشريعة إلا ابن حزم ، وما كان ظاهريا مثلهم وإن تفقه بكتبهم

فإذا نحن لم نقبل أن تكون الخلافة قاصرة على قريش وهم سرة الأرض ، وأسرة النبى ، وسدنة البيت الحرام ، افنقبل أن يكون الملك مقصوراً على قريش الأناؤوط ، وأسرة فاروق ، وأهل قولة [١] ؟

حسبكم من فضائل هذه الأسرة ، أنها سرقت الأرض ، وانتهكت العرض ، وأضاعت الدين ، وأفسدت الخلق ، وأذلت الرقاب !

حسبكم اسماعيل وتوفيق وفاروق . لا تجلبوا لأنفسكم فاروقا جديدا ، كلهم فواريق !

يا أهل مصر . هذا هو الطريق ، فاسلكوه . يا أهل مصر لا ترددوا ، ليس بينكم وبين الغاية إلا خطوة واحدة !

على الطنطاوى

(١) صدق أخونا الاستاذ سعيد العريان ، أن هؤلاء هم بقية المماليك ، فضموهم إليهم ، والمقوهم بهم ولقنوا ذلك الصغار فى المدارس ، والكبار فى الصحف والإذاعات

(٤) الفضل الزيادة

شعراء الوطنية

البارودي

للأستاذ عبد الرحمن الرافعي

تتمة

في مقالنا السابق تحدثنا عن (محمود سامي البارودي) وعن شعره في منفاه . واليوم نتم الحديث عن شعره الوطني

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها :

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمي) مصر ... لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناءان ردا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموز لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق في سطر
فما من بناء كان أو هو كائن ... يدانيهما عند التأمل والخبر

وختمها بقوله :

فيا نسمات الفجر أدى تحيتي ... إلى ذلك البرج المطل على النهر
ويا لمعات البرق إن جزت بالحمى ... فصوبي عليها بالنثار من القطر
عليها سلام من فؤاد متيم ... بها لا بربات القلائد والشذر [1]
ولا برحت في الدهر وهي خوالد ... خلود الدراري والأوابد من شعري

شعر القتال

ومن قصيدة له في وصف إحدى المعارك التي خاضها ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها ... وإني صبور إن ألم بي الخطب

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل ، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى . وهي من شعره السياسي الوطني الرائع :

قامت به من رجال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضا ويلفظه الديوان . من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل في خلل

إلى أن قال :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا ... شكالة الريث فالدنيا مع العجل

---

(١) الشذر صغار اللؤلؤ

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منتزع سهما ومختتل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية
ويرفل العدل فى ضاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم ... (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التى كانت تحاك حوله :

نقموا على حميتى فتألبوا ... حزبا علىّ وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بقربتهم فلما صادفوا ... مما يميل إلى الملام توسعوا
لاعيب فى سوى حمية ماجد ... والسيف يثلمه المضاء فيقطع

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه . فاستقبل مصر بقصيدته التى مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر
فإنى أرى فيها عيونا هى السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة
فذلك عصر المعجزات وذا عصر

إلى أن قال

وإنى امرؤ تأبى لى الضيم صولة ... مواقعها فى كل معترك حمر
أبى على الحدثان لا يستفزنى ... عظيم ولا يأوى إلى ساحتى ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها . وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان فى أوج سلطانه . وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران . وتذكر أخطاءه التى كان لها أثرها فى التمهيد للاحتلال . فلم يترحم على عهده . ونظم هذه القصيدة معتبرا ومذكرا وهى من آيات الشعر فى العظة والاعتبار . قال :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع !
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فترت
يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا
أيدى سبا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها
كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا
أين المعاقل بل أين الجحافل بل
أين المناصل والخطية الشرع ؟
لا شئ يدفع كيد الدهر إن عصفت
أحداثه أو يقى من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
ولا تعطلت الأعيـاد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
وإنما صفوه بين الورى لمع

لو كان للمرء فكر في عواقبه
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يغر وآمال تسر وأعـ
ـمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به
وليس يعلم ما يأتي وما يدع
يا أيها السادر المزور من صلف
مهلا فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

وظل البارودي بعد عودته من المنفى في عزلة عن الناس . لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده . إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٠٤ . تخلف مجدا لا يبلى على الزمان

عبد الرحمن الرافعي

١٩ ٠ ٤٠

غرارة ملقـــــاة

للأستاذ محمود محمد شاكر

إليك عني ، أيتها النفس ، فأنا وأنت كما قال عبيد ابن الأبرص :

إذا أنت حملت الخؤون أمانة فإنك قد أسندتها شر مسند

وقد أبيت على أن أكتب ما كنت أريد ، لأنك أردت أن تكوني لي على غير عهدي بك منذ ساعات قلائل . فدعيني أحدث عنك بما أسررت من مضمر أو مكنون

ما كدت أجلس إلى مكتبي حتى تبعثرت خواطري ، وتهاربت مني أفكاري ، وانتشرت علي عزيمتي ، وتفرقت عني إرادتي ، وتطايرت في الآفاق سوا كن نفسي ، وغادرتني همتي ، وكأني غرارة ملقاة على مدب الحياة . وربما هجس في نفسي الهاجس ، فما أكاد أقول : هذا هو ! حتى أجدني على جناح أمر آخر ، وإذا بينهما مسيرة ما بين مشرق الشمس ومغربها . فأين المفر ! وكيف القرار ! لا أين ولا كيف ! بل ألتمس مذهبا لا غاية له ، لعلي واجد فيه بعض ما أسرى به حيرتي : أن أقيد ما يعن لي — أم ينبغي أن أقول : أن أقيد ما أعن أنا له — على عجل ، وبلا ترتيب ، وكما يتفق

ولكن ما نفع هذا لك أنت أيها القارئ ؟ هل يعنيك شيئا أن تطلع على حيرة نفس في ساعة من حياتها ؟ أم هل يجدي عليك أن تطلع ؟ بل مالي ولك ! أتراني أكتب لأنفعك ؟ ما أسخف هذا ! وماذا عندي مما تنتفع به ؟ كيف أستطيع أن أدعي أني أنفع بالذي أكتب الآلاف من القراء مثلك ؟ وأنى لي علم هذا السحر : أن أجمع في أسطر معدودات حاجة كل نفس ؟ أوليس من السخف ، ومن الغرور أيضا ، أن يزعم امرؤ أنه يملك القدرة على نفع أحد ، فضلا عن آلاف ؟ وما أملك إلا أن أصارحك بأني ما كتبت قط إلا لنفسي وحدها ، ثم لا ألبث أن أعرض عليك ما أكتب — لا لأعلمك أو أنفعك ، بل لتعرف كيف يفكر إنسان مثلك ! وكيف يخطئ وكيف يصيب ! وكيف يصدق وكيف يخون ؟ فإذا كان ذلك كذلك فلا بأس عليك إذن ، إذا تصفحتني في ساعة من شتاتي وحيرتي ، كما تتصفحني في ساعة هدأتي وسكينتي

* * *

كيف ! هل يمكن هذا ؟ هل يمكن أن يصبح الإنسان غرارة ملقاة على مدب الحياة ، ثم هي إنسان يحس بالحياة

وأحياؤها يمرون عليه غادين أو رائحين . هذا واطئ يطؤه ، وهذا مقتحم يقتحمه ، وهذا ذاهل عنه وفي عينيه نظرة التأمل ، وهذا متلفت إليه يرمقه كالمتعجب ! وكلهم لا يبالي . وهو أيضا لا يبالي أن يكون ما كان : غرارة ملقاة على مدب الحياة والأحياء

وما دامت الغرارة الملقاة تحس بالحياة وأحياؤها يمرون عليها غادين أو رائحين ، أفليس هذا حسبها من الحياة وأحيائها ؟ وما الحياة ؟ هل الحياة إلا إحساس محض ؟ إحساس بالألم ، وإحساس باللذة . إحساس بالرضى ، وإحساس بالسخط . إحساس بالجمال ، وإحساس بالقبح . إحساس بالنور ، وإحساس بالظلام . إحساس بالشبع ، وإحساس بالجوع . إحساس بالحلو ، وإحساس بالمر . إحساس بالشذا الطيب ، وإحساس باللخن الكريه . إحساس مجرد مرهف نافذ لا يعوق نفاذه شئ . إحساس حر كشعاع الشمس

أوهؤلاء الغادون والرائحون أعرق في حس الحياة من الغرارة الملقاة على مدبها ؟ وما الحركة التي تسير بهم غادين أو رائحين ؟ أهي تزيد الإحساس وتضاعفه ، أم هي تنقص منه وتتحيفه ؟ أوليست الحركة شاغلا يشغل عن تجريد الإحساس وإمحاض للمحسوس ؟ وأيهما أنفذ : غرارة ملقاة يستغرق حسها نابض الحركات حتى تظل حية هامدة ، أم غاد ورائح ، تتخون الحركة من حسه حتى يكل مرهفه ويفل مضاؤه ؟

***

بل كيف يستغرق الحس الحركة ؟ يا عجبا كل العجب ! إنه أمر لا يكاد يدركه إلا من مارسه في سريرة نفسه . لذة لاتوصف ، ولكنها تعقب أحيانا ألما لايستقر . لذة تتملى بها وحدك ، وإذا هي تتسرب بك إلى جنة مونقة تدلت عليك بأثمارها . أما الألم ، فهو الذي يلذعك إذا روعك عن استغراق حسك طارق لم تكن تتوقعه

أجدني أحيانا في أمر والناس معي ، ثم يستغرقني عنهم حس أنفرد به ، وإذا أنا معهم ولست معهم . ثم ينبرى سائل فيسألني عن شئ غير الذي أنا فيه ، فأنتبه كالمذعور ، ويختلط على ما أنا فيه بما سئلت عنه . وعندئذ أرى كل شئ يفر مني كأني ما عرفته من قبل ، ويأخذني ما قدم وما حدث ، ويخرجني التنبه قسرا من استغراق الحس إلى حركة لم أتهيأ لها ، وتتضارب على لساني كلمات لم أردها ، وأقول ذاهلا ، ما لو تأنيت قليلا حتى أستقر لما قلته . إنه قول منزعج عن حقيقته ، لو اطمأن لاستقام على وجهه . فمن لي بمن يحس بما أحس به ، حتى يتفق حسي وحسه ، ثم يقظتي ويقظته !

***

أمن الممكن حقا أن تجعل إنسانا يحس بما تحس به ؟ باطل محض . الحس عمل متصل لا ينقطع ، بعضه يأتي في أعقاب بعض . أجل ، ليس من الممكن أن تفرغ نفس إنسان من ماضي إحساسها ، وتفرغ نفسك من سالف إحساسها ، كي تبتدئا معا ، وتسيرا معا إلى النهاية . هذا مستحيل . وإذا استحال ، فيستحيل معه أيضا أن تجعل إنسانا يحس بما تحس به . نعم قد يستقيم في بعض الكلام أن تقول لأخيك : « إني أحس بما تحس به » ، ولكنك تعني عندئذ أنك توجهت بإحساسك إلى شئ كان إحساسه قد توجه إليه . أما لو ظننت أن إحساسك بمثل إحساسه ، فهذا باطل . وألفاظ اللغة تضلل من لا يتوقى مجاهلها

***

كل امرئ منا عالم وحده ، لأنه يحس إحساسا واحدا لا يشركه فيه أحد من بني جلدته . وكل امرئ منا هو في أصل طبيعته يعيش في خلوة تامة — في غرفة مغلقة الأبواب . وإذا فسدت عليه هذه الخلوة ، فسد إحساسه بالحياة وأحيائها . وإذن ، فمن الإثم والعدوان أن تحتال على أحد ، متوهما أنك قادر على أن تجعل إحساسه بالأشياء كإحساسك . إنك آثم لا محالة . إنك تفسده

وتفسد عليه حياته . إنك تمنف به حتى يخرج من خلوة الفطرة من حرية الحس . نعم ، بل أنت تتلذذ باستلحاقه فى إحساسك ، تتلذذ بخضوع سر حريته لسطوتك ، تتلذذ تلذذا بشما باستعباده !

***

باطل الأباطيل أن يحس جماعة من البشر بإحساس واحد . إنه خلط قبيح . إنه إذلال كل فرد لطاغوت مكذوب يقال له الجماعة . كل امرئ منا له حس منفرد ، يجرد للاحساس لشئ واحد ، هو ما انطوت عليه هذه الحياة الدنيا ، كما فطرها فاطر السموات والأرض ومن فيهن . والذى يجمع البشر فى هذه الحياة ، هو هـذه القضية المركبة : حس ينفرد به كل امرئ منهم ، يتجرد للاحساس بعالم واحد يتعايشون فيه . العالم الواحد هو الذى يربطهم ، لا تطابق إحساسهم تطابقا تاما أو غير تام

والإنسان ليس مدنيا بالطبع ، كما يزعم الزاعمون ، بل هو مدنى بالضرورة . والضرورة هى هـذا العالم الواحد الذى نعيش فيه ، والذى لا فكاك منه إلا بحمام المنية . هذا العالم الذى يأسرنا ، هو وحده الذى يربط بيننا ، وهو وحده الذى يؤلف بين هذه الأحياء المحسة به ، وكل حى منها منفرد بإحساسه ، مستقل به وحده

لا يتطابق حسان بإحساس واحد أبدا ، بل يتطابق حسان على الإحساس بشئ واحد ولا مفر . وهما قضيتان مختلفتان فى أصلهما ، مختلفتان فى نتيجتهما

***

أنبل جهدك أن توقظ إنسانا حتى يحس ، وسبيلك أن تفطن إلى شئ واحد : هو أنك أحسست بهذا الشئ أو ذاك . فإذا فطن له وتهيأ أن يحس به ، فذلك حسبك وناهيك . غايات الغايات : أن توقظ حسه لكى يحس . والذى لاريب فيه ، أنه سيحس بغير الذى أحسست . هذا غاية جهد أعلم العلماء وأبلغ الأبيناء ، وهو الأمانة التى كتب عليه أن يؤديها بما آتاه الله من علم وبيان . فإذا جاوز هذا إلى أن يحتال عليك ويختلك ويماسحك ، ثم يتلصص إلى خلوتك ليضع فيك إحساسه ، لكى تبلغا « اتحاد الإحساس » فاعلم أنه لم يزد على أن أفسدك وشوهك . فاحذره . إنه يستعبدك ! إنه يميت إحساسك ! إنه يتركك تقلد الحس وأنت لا تحس ، كالببغاء تقلد الكلام وهى لا تتكلم !

هـذا إثم يرتكبه كثير من الجماعات ومن أصحاب المذاهب . يزعمون إصلاح الناس ، وحقيقة فعلهم تخريب الناس ، وإماتة الإحساس الحى ، واستعباد الحس الحر المنفرد فى كل نفس . إنه تدمير الفطرة فى سبيل الجماعة ، أو فى سبيل المذهب ، أو فى سبيل الدولة ! حذار من فتك هؤلاء الفتاك ، وإن جاءوك فى ثياب النساك

***

صورة الإنسان واحدة ، مذ كان الناس على الأرض . الآلاف بعد الآلاف منذ أقدم الدهر . بنية واحدة بها يعرف الجنس أنه « إنسان » ، ولكنهم متباينون ، فلا يتشابه إنسانان أبدا . وكذلك الحس أصل واحد فى كل إنسان ، ولكن يتباين الحس ، فلا يتشابه حسان أبدا ، ولا يتطابق إحساسان البتة

لاحيلة لأحد حتى يستطيع أن يدمج إنسانا فى إنسان ولو رام ذلك أحد لدمرهما جميعا . أما الحس ، فبالختل يتطابق ، وبالخداع يندمج . ختل هو القسر ، وخداع هو الاعتساف . ولا يتم ذلك إلا بتشويه الحس وتدميره . والذى هون على الناس أمر هذا التشويه والتدمير ، هو أن من الممكن أن يعيش المرء حياته بحس مدمر خرب ، وإن كان مستحيلا أن يعيش بصورة مدمرة خربة

ومن هوانه على الناس ، أن يفعله غير متحرج أكثر الآباء والأمهات ، وأكثر المعاهد والمدارس ، وأكثر الجماعات والمذاهب والدول . يدمرون حس الإنسان بالختل والخديعة ، حين يزعمون إصلاح الناس بتطابق إحساسهم واندماجه . يدمرون الحس لأنه باطن ، ولأنه لا قوام له

يحول بينهم وبينه ، كما يحول قوام صورة الإنسان الظاهرة بينهم وبين ما فملوه فى شقيقها وقرينها

***

الحياة إحساس محض ، والحس حر مطلق ، فأيما مذهب أو جماعة أو دولة ، حاولت أن تدمج بالختل حسا فى حس ، وأن نطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس ، فلا غاية لها إلا استعباد أحرار الحياة ، وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة : بالكذب والمكر والتغرير والختل والخديعة والعبث . إنهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجماعة أو الدولة ، طاغوتا يعبده الضالون داعين متضرعين « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

أليس هذا بحسبك بعد الذى أفضت فيه . وقد عرضت لك جانبا من خواطر نفس حائرة تتصفحها ، فتفكر وتدلج ، واحذر ما يقول القائل .

فبينما الأمر تزجيه أصاغره إذ شمرت فحمة شهباء تستعر
تعيي على من يداويها مكايدها عمياء ، ليس لهاشمس ولاقمر

محمود محمد شاكر

ثلاثة حوادث من التاريخ الإســـلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها

للأستاذ عبد الحميد العبادي

عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية

نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم . أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥هـ ٨٦ هـ) . الثانى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بتدوين الحديث النبوى . الثالث أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحدا واحدا ، مبين الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل بالإضافة إلى نهضة العربية فى عصرنا الحاضر

إن نظام الديوان نظام مستحدث فى الدولة الإسلامية ظهر على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عندما توالت الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة ، فاقتضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطياتهم ، فاستشار عمر ذوى الرأى على عادته فى كل أمر حازب وحدث مهم ، فأشاروا عليه بوضع الديوان

و « الديوان » كما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية لفظ إيرانى الأصل له صلة بكلمة « دبير » ومعناها « الكاتب » . وقد أطلق فى أيام الفتوح العربية على السجلات التى كانت تشتمل على حساب أموال الدولة ، ثم أصبح يضاف فى العصر العباسى إلى كل فرع من فروع الإدارة العباسية ، فقالوا ديوان الزمام وديوان التوقيع وهكذا

ولقد كون عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطياتهم على نظام اتفق عليه وفصله الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع فى الدولة الإسلامية وكان يحرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية ، وكان مقر دواوين الأموال فى عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحاتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على هيئة جزية أو خراج . وكان هذا الديوان يكتب فى كل قطر بلغة أهله أو لغة الدولة التى كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى

فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هذه الدواوين عمال من أهل الأقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب فى الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة يتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم أن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ فى الميزان الدولى ؛ هذا إلى عصبيتها الشديدة لكل ماهو عربى ، فلم يكن من الطبيعى أن تظل دواوينها تكتب بغير العربية . واتجهت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فضربها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإسناده أن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعهد عام الجماعة أى سنة ٧٤ وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ . » ثم اتجهت عزمة عبد الملك وعامله الحجاج إلى تعريب الدواوين

روى البلاذرى نقلا عن المدائنى عن أشياخه فى بيان السبب الذى من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ ابن بيرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالفارسية والعربية ... فوصل زادان فروخ صالحا بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم إنك سببى إلى الأمير وأراه قد استخفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلى منه إليك ؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال فحول منه شطرا حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيبه ، فلم ير به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر . ثم إن زادان فروخ قتل فى أيام عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث الكندى ... فاستكتب الحجاج صالحا مكانه فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين زادان فروخ فى نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وقلد ذلك صالحا . فقال له مراد نشاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهويه وشيشويه ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر ! قال فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتبه «وأيضا» والويد النيف والزيادة تزاد . فقال : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب ! » . ويقال إن الحجاج أجل صالحا أجلا حتى قلب الديوان »

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضا سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك ، فدعا بسرجون كاتبه ، فعرض ذلك عليه ، فغمه ، وخرج من عنده كئيبا ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ! فقد قطعها الله عنكم ! قال وكانت وظيفة الأردن التى قطعها له معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار »

أما ديوان مصر فيقول الكندى فى كتاب « القضاة والولاة » فى أمر نقله « وبويع الوليد بن عبد الملك ...

فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربيــة ، وكانت قبل ذلك تـكتب بالقبطية ، وصرف عبـد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص »(١)

ومهما يكن ما ترويه المصادر القديمة من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين فالذى لا شك فيه أن عبـد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدى العصبية لـكل ما هو عربى ، وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالا لمظاهرة سيادتها وتوفير لـكرامتها

ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخى الهام عدة أمور خطيرة : —

فالعربيــة الفصحى أفادت ألفاظا جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية وويد ، فهى مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع . وظهرت فى العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة فى الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل

ثم إن الأعاجم مسلمين أو غير مسلمين أقبلوا على تعـلم العربية ، بباعل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام فى أعمال الـكتابة والخراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضى فى المنازعات التى كان ينظر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال. وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه تتضاءل وتضمحل حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال

وبانتشار العربيــة بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت فى الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية تبين لنا المصرية منها خاصة مجموعات البردى التى كشفت فى مصر والتى تصاحب تاريخ مصر الإسلامى من أول الفتح العربى إلى القرن السادس

تشتمل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاة مصر مثل قرة بن شريك وغيره وبعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة صحيحة فصيحة ، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق المبايعات والمداينات ، وعقود الزواج والتمليك والشئون اليومية ؛ وهذه مكتوبة بلغة شعبية مباينة للفصحى وفيها كثير من خصائص العاميــة المصرية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء فى « إحفض » بدلا من « إحفظ » وإسقاط الهمزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ويضا » بدلا من « وأيضا » و « وحد عشر » بدلا من « أحدعشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهلم جرا . وقد نشر جانبا من هذه البرديات المحفوظة بدار الـكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودلف جروهمان النمسوى فى ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الـكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنابه حديثا كتابا قيما فى هذا الموضوع أسماه « من عالم البرديات العربية » وقد نشرته جمعية الدراسات التاريخية المصرية

وأهم النتائج التى ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب لتبادل الآراء والأفكار فى العالم الإسلامى الذى كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسى

* * *

هذا ، عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار . أما تدوين الحديث النبوى فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأولى يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الـكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه ؛ بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم خاصة

(١) وإتماما لهذا العرض التاريخى أقول أن سعادة السيد حسن حسنى عبد الوهاب باشا العلامة التونسى وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية أخبرنى أن ديوان المغرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية فى حـوالى الوقت الذى عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا فى ض بنواحى المغرب على دينار عربى من زمن الأمير موسى بن نصير

لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروى الخطيب البغدادى فى كتاب «تقييد العلم» أن ابن شهاب الزهرى قال لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق تنكرها ولا نعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت فى كتابته . فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا » . ثم استفاض تأليف الكتب فى الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب الستة المشهورة

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هى فى طبقة عالية من البلاغة فأفادت اللغة من تدوينها نموذجا للعبارة البليغة مكن للفصحى بعد المنزلة التى بلغتها بالقرآن الكريم أى تمكين . وإن حرص المسلمين فى كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين وبالغ عنايتهم بهما أقام الفصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن مادام فى الأرض مسلمون وإسلام

ثم إن الأحاديث المروية عن الرسول العربى تعتبر المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ، ومن ثم وضعت كتب فى الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك وصحيح البخارى فكان منها مادة عظيمة غذت لغة الفقه الإسلامى وعلوم الحديث وانبعثت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المؤلفة فى هذين العلمين الجليلين

* * *

ثم انتقل ، إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا فى أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية فى الشام والعراق رغبة من النساطرة واليعاقبة فى درسها بلغتهم مبالغة منهم فى مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البزنطية التى انفصلوا عنها من الناحية الدينية . وكان أكثر ما يدرس فى هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة ثم الطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتبا عدة فى الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية

واستمرت هذه الحال فى العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئا فشيئا بهذا الجو العلمى الذى كان يسود الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها وجنديسابور حتى رووا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب اسكندرى اسمه ماريانوس وأنه ألف فى الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل اذداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان للخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب فى هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك فى تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه إلى البحث الفلسفى وآراء المعتزلة كالقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكا جديدا بالمرة ، إذ أنشأ فى بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه حذا بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التى أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروى ابن النديم فى « الفهرست » السبب الذى بعث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى فى منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الأذن فى إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم

الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم « صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . ثم أنه جعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ، ويرغبهم في تعلمها كما يذكر ابن العبرى في كتابه مختصر تاريخ الدول

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليماقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك حتى أنه لم يكد ينتهى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيما بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله في العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل من علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف خاصة مثل كتاب « المعرب والدخيل » للجواليقي . ومهما يكن من شيء فقد كسبت اللغة العربية مادة غزيرة وفيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من خوض مسائل علومهم المختلفة بلغة مواتية وألفاظ دالة على المعاني التي يريدون التعبير عنها

* * *

وبعد فإننا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية في مجال المصطلحات الإدارية المالية ، وما أنتجه تدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، وما أنجزه نقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء في ميدان العلوم العقلية والطبيعية فإننا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت في القرن الرابع بحرا خضما مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتشرح معاني مفرداتها . وهذا كله بفضل ما في هذه اللغة نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التي انتهجتها الدولة بأزائها على النحو الذي بيناه

وأخيرا أختم كلمتي فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ، فبعد مضى أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التي كانت عليها في أزهى عصور الإسلام . لقد عربت دواويننا بعد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وانجليزية ، ثم ها هي ذي حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية في مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم مجمعنا الموقر على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإنجاحها . وكما كانت العربية أداة التفاهم وتبادل الرأى والفكر في الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها بسبيل أن تصبح كذلك في عالم شرقي حديث يمتد من أقاصي إندونيسيا إلى مراكش . وهو لعمرى أوسع وأشمل من العالم الإسلامي القديم . ولكن هذا معناه تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحماة لغة الضاد ، وأخص منهم بالذكر رجال مجمعنا الموقر ، أن الآمال المعقودة عليهم في جعل العربية تنهض في المستقبل القريب نهضتها في الماضي البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال وهي متحققة بإذن الله فسيكون للعربية شأن أي شأن في نشر الثقافة العليا في القارتين الآسيوية والأفريقية والله ولى التوفيق

عبد الحميد العبادي

أسف واعتذار

نعتذر آسفين لمشتركي الرواية من توقفها عن الصدور بسبب الخسارة الفادحة التي منينا بها في أعدادها الخمسة التي ظهرت ، ونرجو ممن دفعوا بدل الاشتراك سلفا أن يستردوه نقدا أو يشتروا به كتبا من مطبوعات الدار

من وحى الثورة وأهدافها

الفرد وقيمته فى المجتمع المصرى

للأستاذ محمود الشرقاوى

أمران هما اللذان حركا فكرى لأن أتناول بالكتابة هذا الموضوع . وكلا الأمرين من وحى الثورة المباركة ، كما أعتقد أن الغاية التى يحققها هذان الأمران وأمثالها ، هى من أهداف ثورتنا ، أو يجب أن تكون من أهدافها

أول الأمرين ما سمعته أذناى ، عرضا ، وأنا أسير إلى جوار رجلين من عامة الشعب . فقد سمعت أحدهما يقول لصاحبه : الآن لا كبير ولا صغير ، ولا سيد ولا عبد ، فيجب أن تطلب حقك ، وتشكو ظلمك ، وأنت مطمئن شجاع . وقد أحسست فى نفسى شعورا بالعزة ، والرضى إذ أجد هذا الإحساس الذى هو وليد الثورة بلا شك ، فى قلوب المهضومين من أبناء الوطن

ولكنى وددت لو أستطيع أن أقول لهذين المتحدثين وأمثالهما من الناس ، إنه لا يوجد الآن سيد ولا عبد حقا ، ولكن يوجد ويجب أن يوجد دائما ، كبير وصغير ، فهذه هى الحياة . وهكذا خلق الله الناس . ولكنه أمرهم أيضا أن يرعى كل حق أخيه . فحق الصغير على الكبير البر والمودة والمواساة . وحق الكبير على الصغير ، العرفان ، والمحبة

أما ثانى الأمرين ، فهو ذلك الخطاب الذى قرأته ، عرضا أيضا ، والذى ترسله الهيئة المشرفة على توزيع معونة الشتاء

فقد جاءت إلى امرأة فقيرة ، معدمة ، عمياء . تمد يدها تحمل ورقة . وعلى وجهها الأسود البائس شئ من أمل وشئ من سرور . وقرأت ما احتوته هذه الورقة من سطور فإذا هى قليلة الكلمات ، ولكنها تحمل من الدلالات والمعانى ما ليس بالقليل . وما بلل عينى بالدمع ، بعد أن تلوثه

كان كتابا جاءها من المشرفين على توزيع هذه المعونة يطلب إليها أن تذهب إليهم فى مقرهم . وليس فى هذا كله شئ جديد ، ولا أمر يستحق أن يكتب فيه . ولكن صيغة الكتاب هى التى تحمل من المعانى والدلالات ، كما قلت ، شيئا كثيرا . فهى تدعوها ، وأندادها من الفقراء ، الذين لم يكن يدعوهم أحد ، « بالمواطن » . وهى ، أى لجنة الأشراف على التوزيع ، « تتشرف » بدعوتها فقط ، وفى ذلك من الرقة ، وحسن اللياقة ، والأدب فى الخطاب ، ومراعاة الشعور الإنسانى ما فيه ، وما ليس يخفى . ثم يوقع الخطاب ، بعد هذه الصيغة المهذبة الرفيعة باسم اللواء أركان حرب محمد نجيب

فهؤلاء القوم الذين طحنهم البؤس ، والحرمان واليأس ، والذين لم يكن يذكرهم أحد إلا بالسخط ، ولا يخاطبهم أحد إلا بالزراية ، يوجه إليهم مثل هذا الخطاب الذى يفيض أدبا ، ورقة ، وحنانا ، ورعاية من رئيس الحكومة ، وقائد الجيش الذى أحدث أعظم انقلاب فى تاريخ مصر كله !

ذلك شئ جديد لم يروه من قبل ، ولم يكن يخطر بأحلامهم . ثم هم بعد هذه الدعوة المهذبة يذهبون فيجدون من بر إخوانهم ما يكسوهم من عرى ، ويغنيهم عن سؤال ، ويجدون أن ما أخذوه ليس صدقة ولا منة ، بل هو حق الفقير عند القادر

وهذا شعور جديد عند الحاكم لم يألفه وطننا مغزاه أن كل « مواطن » أخ كريم له من العزة والكرامة والحقوق ما لكل أخ قبل أخيه مهما يكن هذا المواطن فقيرا بائسا محروما

وهل قامت هذه الثورة البارة الخيرة إلا ليسعد بها الفقير ، والبائس ، والمحروم ؟

* * *

ولست أعتقد أن هذا الأسلوب المهذب فى خطاب الفقراء كان أدبا فى الخطاب فحسب ، بل أحب أن أعتقد أنه يبطن وراء هذا الأدب غاية أخرى هى إشعار الفرد بقيمته الذاتية وكرامته الإنسانية التى هى حق كل مواطن ، والتى هى الركن الأول لكرامة الوطن والجماعة ، فلن تكون جماعة كريمة عزيزة إلا وأساسها فرد كريم عزيز ، ولن يكون وطن كريم عزيز إلا وأساسه ولبناته أفراد كرام على نفوسهم أعزاء عند مواطنيهم

والقيمة الذاتية للفرد هى أيضا ، أساس الحكم الديمقراطى المستقيم النظيف المنتج ؛ فعلى قدر الاحساس الذاتى بالكرامة يكون الحرص على الحقوق الخاصة للفرد ، والحقوق العامة للجماعة

ولن تجد إنسانا يشعر بقيمته الذاتية وكرامته ثم يرضى بحكم فاسد أوجائر يظلمه أو يحكم به جماعته . أو يخضع له وطنه . والذى يعرف لنفسه قدرها يحرص عادة على أن يعرف أقدار الآخرين فلا يظلمهم ، ولا يرضى بما يقع عليهم من ظلم غيره

ولن تجد إنسانا يشعر بقيمته الذاتية وكرامته ثم يرضى بأن يكون عاطلا أو ضعيف الإنتاج ، ولا أن يعيش فى الحياة على مستوى مادى أو ثقافى يأباه لنفسه الرجل الكريم

فالقيمة الفردية لكل إنسان ، هى الأساس الأول لكل إصلاح ، وخير ، ونهضة متينة البنيان ، والأساس الأول لبناء الوطن الحر القوى الكريم

وقد قرأت فى الأيام الأولى لهذه الثورة أن القائد الرئيس محمد نجيب لاحظ وهو يسلم على أحد الأفراد أنه ينحنى ، ويخفض رأسه ، فهز يده وهو يقول : إرفع رأسك ، وانظر فى عينى فقد مضى زمن الخضوع

وهذه هى الروح التى لا بد للثورة أن تنميها ، وتزكيها فى مجتمعنا المصرى ، والتى أعتقد أن كثيرا من قوانين الثورة كقانون إلغاء الرتب والألقاب ، وقانون الإصلاح الزراعى ، كانت تهدف إليها ، فى ضمن ما تهدف

كما أعتقد أن هيئة التحرير ، التى تشمل فروعها بلادنا كلها الآن ، ستجعل من أهم أهدافها تعزيز هذه الروح وإشعار الفرد بقيمته مع رعاية حق الآخرين

وحبذا لو احتذت مصالح الحكومة فى خطاب الأفراد حذو هذا الكتاب الذى أرسلته الهيئة المشرفة على معونة الشتاء ، إلى الفقراء ، وخرجت عن أسلوب خطابها الذى يوحى بالاستعلاء ، والتفرد

وحبذا لو اهتدى موظفوها بهدى هذه الروح فى معاملة أصحاب الحاجات من روادها

محمود الشرقاوى

الاسلام والفن والحياة

للاستاذ منصور رجاب الله

ما زال القلم ينازعنى فى التعقيب على نبأ طالعته فى الصحف قبل أشهر ، وما برحت أطامن نفاره وأرده عن جماحه حتى غلبنى على أمرى فكان هذا المقال !

وقصارى هذا النبأ أن « جمل المحمل » نفق ، وليس فى هـذا شئ ، فما كان نفوق حيوان ليسترعى الأذهان ، ولـكن بعض الصحف أبرز هـذا الخبر فى إطار مبالغة فى الاهتمام به ولفت النظر إليه . إذن فليس الأمر أمر حيوان نفق وصار جيفة من الجيف ، فلا بد أن للخبر وجها آخر يعادل هذا الوجوم المرتسم على كثير من الوجوه التى طالعها الخبر

إن الذين قرأوا نبأ نفوق جمل المحمل ، عرفوا من قبل أن « طلعة المحمل » قد ألغيت منذ هذا العام ، وأن أهل القاهرة سوف يحرمون هـذه « البدعة » التى جرت بها التقاليد منذعهد «أم خليل المتعصمية» المشهورة فى التاريخ باسم شجرة الدر ، ومن ثم كان الحزن وكان الوجوم ، وكان التساؤل : أى خير فات الأمة من بقاء المحمل ؟ ومتى نهى الدين عن المحمل ؟ وهل من الخير أن نقحم الدين فى كل شأن من الشئون ؟

وقبل عام وبضع عام كانت المعركة محتومة بيننا وبين الطغاة المحتلين على ضفاف القناة ، وكنا نعبئ قواتنا ونستنهض الهمم والعزائم ، وإذا بشيخ جليل القدر كبير المكانة ، يطلع علينا بمقال ضاف فى إحدى الصحف بأن تقبيل زمام جمل المحمل حرام ، وأن الدورات السبع لجمل المحمل لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة ، وقرأنا هذا الكلام ونحن فى قتام المعركة وقبل أن ينجلى عن اللحمة غبارها ، نهد للشيخ الوقور من يقول له إن تقبيل زمام الجمل لا يعنى إلا تمجيد المعنى الذى يعنيه سفر المحمل إلى البقاع القدسية وأن التقليد القائم على دورات المحمل السبع لا يعنى إلا التمثل بالأشواط السبعة حول الـكعبة المشرفة أو بالأشواط السبعة بين الصفا والمروة

وكنت أحب أن أرد على الشيخ ، وكانت النفس فى سورة جامحة ، ذلك أن إثارة ذلك الموضوع فى هاتيك الأيام لم يكن يقصد به وجه الله ، وإنما كان يراد به صرف الأذهان عن مجاهدة الأعداء

واليوم أرجو أن أستميح القارئ عذرا إذا تحدثت فى هـذا الموضوع ، فلقد كثر الحديث فى هذه الأيام حول ولاية علماء الدين فى الإسلام وتمرض الأزهر الشريف لمحنة سوف يخرج منها إن شاء الله منصورا مبجلا من أهله ومن غير أهله

ولقد قدمنا الحديث بجمل المحمل ، ولا نريد أن نتزيد أو نحمل الألفاظ أكثر من معانيها ؛ وإنا نقولها صريحة إن « المحمل » ليس من الدين ، ولم يكن ثمة « محمل » فى عهـد رسول الله ولا فى عهود الخلفاء الراشدين ولا ملوك الأمويين ولا العباسيين ، وإنما ابتدع المحمل فى نهاية الدولة الأيوبية ، ليكون هودجا لشجرة الدر ، ثم جرى به العرف والتقليد من ذلك العصر ، فكانت قافلة تعبر القاهرة المعزية إلى السويس ثم تجتاز صحراء سيناء ، والركب خلال ذلك يهللون ويكبرون ، فتتجاوب الأصداء بكلمة الله بين تلك المهامه البيد والتنائف الفيح حتى يبلغ الركب البقاع القدسة التى ضمت بيت الله الحرام وقبر الرسول الأعظم عليه صلوات الله ومقابر الصحابة والتابعين عليهم رضوان من الله أكبر

فأى جلال هذا الجلال ، وأى جمال هذا الجمال !

أبعد قرابة ألف عام يطلع علينـا من يزعم أن المحمل « بدعة » فى حين أن البدعة على ما فهمها الفقهاء « كل

شئ ليس له أصل فى الدين » وليس المحمل بمنـدرج تحت هذه البدعة ، وإنما هو مظاهرة دينية فيها فن وفيها جمال ، ولقـد بصرت بعينى مواكب المحمل ورأيت الألوف من الشاهدين تموج عيونهم بالدمع ، وهم يودعون ركب المحمل ويقبلون الكسوة وهى فى طريقها إلى الكعبة أو إلى قبر الرسول . لقد رأيت الناس يذرفون الدمع المتون شوقا إلى البقاع المقدسـة ويعاهدون الله أن يزوروها إذا مد لهم فى الأجل . فإذا لم يكن للمحمل إلا هـذه الفائدة ، لـكفاه فخرا ، وهل بعد التشويق لزيارة البيت الحرام زيادة لمستزيد ؟

وإنى لأذكر الساعة أن ركب المحمل منع من السفر من مصر إلى الحجاز أحـد عشر عاما ، ثم أذن له بالسفر عام ١٩٠٧ وتواكب الناس لرؤيته من كل فج حتى غمرت القاهرة واكتظت جنباتها ، وقيل إن عدد الشاهدين بلغ ألف ألف ، وأذاع المسئولون عن النظام يومئـذ أنه رغم هذا الجمع الهائل لم تحدث سرقة واحـدة ولا حادث يخل بالآداب . أبعد هذا يقال إن المحمل « بدعة » لأنه لم يكن فى عهد النبي ولا فى عهد الخلفاء الراشدين !

لقد كان المحمل ضربا من « الفن » قضينا عليه بأيدينا ليعلم غير أهل الإسلام — بغير حق — أن الإسلام عدو للفن والتقاليد الصالحة ، ولأننا صرنا إلى حال من الفوضى الدينية لا يرضى عنها عدو ولا نصير . ولسنا نعرف والله ماذا يضير الإسلام فى قواعده الخمس التى لا يأتيها الباطل إذا بقيت التقاليد التى لا تمس الجوهر والتى فيها الجمال الذى أشـار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى « ولكم فيها جمال »

إن رجال الأديان الأخرى فهموا الدين على حقيقتـه الطبيعية ، فجعلوا منه فنا وتزاويق وموسيقى تغرى الناس باعتناقه ونحن فى القرن العشرين نريد أن نجعـل من الإسلام دينا تجريدياً لا يفهمه إلا الفلاسفة ، وهيهات أن يكون الناس كلهم فلاسفة

فإذا رخم المؤذن صوته بالآذان وحلاه ، قلنا هـذه بدعة ، وينبغى أن يكون الآذان خاليا من الطلاوة والحلاوة وأن يؤديه صاحبه بجلافة وكأنما يفجر قنبلة أويلقى حجرا ، وكأنما غاب عنا أن لحلاوة الصوت مدخلا للآذان ومعبرا إلى الإيمان . ولقد سمـع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى يرتل القرآن بصوت حنان فأعجبه الصوت الندى وأثنى على صاحبه بقولة « كأنما أوتيت مزمارا من مزامير داود » وهش أبو موسى لهذا الثناء وقال « والله يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تستمـع إلى لحبرته لك تحبيرا » أى لزاد فى حلاوة الصوت وجمال الترتيل

فهذا خاتم المرسلين قد قدر الفن وشجع أهل الفن وجئنا من بعده ندعو إلى غير ما يدعو ، وصرنا نرمى كل ذى رأى بالابتداع أو بالوثنية

ولقد انصرف كثير من الوعاظ عندنا إلى التنفير من كل فن وغاب عنهم أن الإسلام مجد الفنون ودعا إلى الأخذ بها ، وإنما نهى عن الشرك بالله ، ودعا إلى إقامة دعائم الدين ، وليس من الدين أن يقصر كثير من الشيـوخ حديثهم حول الوسيلة والشفاعة ، والقول بأن الصلاة على النبي بعد الآذان بدعة وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة بدعة

وهنا أقف قليـلا لأرى فى صيغة الصلاة على النبي بعـد الآذان ضربا جميـلا من فن النغم ، وليس فى الأمر بدعـة وإنمـا هو شئ طبيعى ، وليس لدى الساعة مرجع تاريخى يسعفنى لأذكر الميقـات الحقيقى لدخول هذه الصيغة المحببة على الآذان ، وإن كنت أستبعد أنها وقعت فى العهد الايوبى كما ذكر بعض المؤرخين ، وإنما أرجح أنها جاءت لعهد عمر بن عبد العزيز الذى استبعد سباب أهل البيت بعد الآذان

كذلك أبعدنا الإسلام عن كل فن حين قلنا بهدم القبور والانصراف عن زيارة مقابر الأولياء ، وزعمنا أن كل أولئك « بدعة » بل هو ضرب من الوثنية ، في حين أننا نقرأ في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم حين دفن وحيده إبراهيم سوى عليه بيده الشريفة ورش الماء وأعلم عليه بعلامة وقال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي »

ولما طاف عمر بن الخطاب بالكعبة في أول خلافته استلم الحجر الأسود وقال « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » وورد في بعض المراجع أن ابن عباس شوهد يوما — وهو في طريقه إلى الحج — راكبا ناقة يدور بها حول شجرة ، ولما قيل له في ذلك أجاب بأنه رأى مرة ناقة الرسول عليه السلام تطوف بهذه الشجرة فأراد أن يتبرك بآثار ناقة الرسول

وفي القرآن الكريم ما يدل على التبرك بآثار الصالحين في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا » « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا »

ونمضي في القول بأنه فضلا عن التبرك بآثار الصالحين فإن في إقامة هذه المقابر ضربا من الفن ، لأن الأضرحة تشيد على أنماط خاصة وزخرفة خاصة تأخذ العين وتستهوي القلب وتدفع النفس إلى التذكرة . والاستشهاد بالحديث الشريف « لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا » لا ينفي على الإطلاق زيارة مساجد الأولياء ؛ فكما أن المرء يشد رحاله لزيارة صديق أو قريب لا عليه أن يسافر ليصلي الجمعة في مسجد الإمام الحسين أو في مسجد السيد البدوي مثلا

ويجرنا هذا إلى الحديث عن الإيمان التجريدي مرة أخرى ذلك الإيمان الذي لا يعرفه حق المعرفة إلا خاصة الخاصة ممن اصطفى الله ، ولسنا نطالب عامة الناس بمثل هذا النوع السامي من الإيمان ، فالناس يخاطبون على قدر عقولهم ، وقد سأل النبي مرة جارية أعجمية « أين الله ؟ » فأشارت إلى السماء فعدها الرسول الكريم مسلمة

ولقد كان الخليفة المأمون رجلا فيلسوفا يؤمن بالله إيمانا مجردا ، بيد أنه رزئ في أخريات أيامه بصحبة القاضي أحمد بن أبي دؤاد فزين له أن يحمل رعاياه كلهم على شاكلته أي من المعتزلة ، فأوقعهم في النازلة الكبرى التي سودت تاريخه ولطخته ، ونعني بها محنة خلق القرآن ، ومات المأمون ، وبلغت المحنة أقصى حدتها في عهد الخليفة المعتصم وكان رجلا فظا لا يعرف من الدين إلا أولياءه ، ووقع بين براثنه الإمام المعظم أحمد بن حنبل ، وأبى أن يقول بخلق القرآن ، فلطمه على وجهه وأمر به فجلد حتى غشي عليه .

ولما جاء بعده الخليفة الواثق خفت حدة المحنة ، حتى إذا تولى « المتوكل على الله » أمر برفع المحنة وقال بالرجوع إلى الكتاب والسنة ؛ ولذا ذهب في الناس قولهم « الخلفاء ثلاثة : أبو بكر في حروب الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم ، والمتوكل في إحياء السنة »

ولم يكن الخليفة المتوكل في علم سلفه المأمون ولا في فقهه ، بيد أنه أدرك من خلائق البشر مالم يدركه المأمون ؛ ذلك أن الدين سجية وفطرة وليس حكرة لأحد من العالمين . وليس لمسلم وصاية على مسلم ما دامت قواعد الإسلام الخمس الأصيلة مرعية الجانب ، وليس لإنسان أن يقحم نفسه في دقائق الأمور وتفصيلاتها ، ولقد ذهب العهد الذي يرمى فيه المسلم بالإلحاد أو الزيغ لأنه خالف قول إمام من الأئمة أو تزيد أو ابتدع

وما دمنا نتحدث عن صلة الإسلام بالفن والحياة ، فلا علينا أن نعرج على رجل عظيم الشأن من علماء الدين

ما زالت تعاليمه تحدث الفتنة وتجعل المسلمين يخبون فيها ويضعون ، ونعني به شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ فأكبر الظن أن الرجل كان يبغي خير الأمة ، وإن شذ في بعض الأمر حتى بدعه طائفة من علماء عصره من سبعة عشر وجها ، وحتى اتهمه التقي السبكي بالزيغ من ثلاثة وجوه ، نقول إنه كان رجلا عظيما لا شك في ذلك . قال ما اعتقد ، ولا أحسبني غاليا في القول إذا زعمت اليوم أن عظامه تضطرب في قبرها لما أحدثت تعاليمه التي تأولها المتأولون من الفتنة والفرقة ؛ إذ قام من بعده الشوكاني وابن القيم الجوزية ولم يكن لهما علمه ولا فضله ، فلجا في الأمر وكفرا جماعة المسلمين . ثم تبع هذين محمد بن عبد الوهاب الذي بالغ في تكفير المسلمين ورفع حد السيف لمحاربة المسلمين بدعوى أنهم « كفار » وأسرف في هدم الأضرحة والقباب في نجد ، ثم عدا أتباعه على الأرض المقدسة فهدموا أضرحة الصحابة الأمجاد وأزالوا القباب ذات الأثر الفني الرائع وكادوا يأتون على مسجد الرسول الأكبر لولا صرخة ارتفعت من ضمير العالم الإسلامي

نستطيع أن نقول إن هؤلاء الناس فهموا الدين فهما مجردا لا فن فيه ، فهو عندهم مجرد ركوع وسجود ، وزكاة وحج وصوم ومعاملات ، وأن المسلم عندهم ينبغي له أن يكون أداة صماء تنفذ التعاليم المكتوبة دون تصرف ولا مرونة ، ودون مجاراة لروح العصر ، ودون أخذ لما يقتضيه علم الاجتماع وطبائع البشر ، فإذا لم يفعل المسلم هذا فهو ملحد وأي ملحد !

ومن هنا اتهموا أتباع الطرق الصوفية بالكفر في حين أن الطرق الصوفية كان لها فضل كبير على المسلمين في الحروب الصليبية وفي حروب المغول وفي وقعة عين جالوت بالذات ، فإن العز بن عبد السلام الذي نفر المصريين للقتال لم يكن إلا شيخ طريقة . على أن هؤلاء معذورون فيما يرون ؛ فعندهم أن أتباع الطرق الصوفية إن هم إلا حواة يروضون الثعابين ويأكلون الحديد ويلعبون بالنار ، وغاب عنهم أن سوء استعمال الشيء ليس دليلا على فساده ، وإنما الفساد أن يرمى المؤمن البريء بالكفر ، وأن يكون راميه على غير حجة أو بينة

* * *

ونخلص من هذا الحديث إلى أن الإسلام ليس دينا ودولة فحسب ، كما يحلو لطائفة من جلة المؤمنين أن يقولوا، وإنما هو دين ودنيا ، وعلم وفن ، بل هو مرادف للحياة في ذاتها ، الحياة في هذه الدار ، وفي تلك الدار ، وإن المتزمتين المتنطعين الذين يفهمون الإسلام على أنه تعاليم كتبها فقهاء طوتهم الأجيال ، هؤلاء لم يعد لهم مكان في دنيا الإسلام ، ولا في دولة الإسلام ، ولا في دين الإسلام

منصور جاب الله

العلل النحوية

للأستاذ على العمارى

بالرغم من الصيحات المتتابعة من العلماء القدامى والمحدثين بأن العلل النحوية لاغناء فيها ولاجدوى منها ؛ وبالرغم من الشكوى الأليمة المرة من المتعلمين والمعلمين على السواء من تعقيد النحو العربى وصعوبته وكثرة الفضول فيه ؛ بالرغم من ذلك كله فلا يزال بعض العلماء ينادى بأن النحو العربى خلق مبرأ من كل عيب وأن العلل النحوية بالذات — فى هـذه الكتب هى الذهب الأبريز . ولا يزال المشرفون على التعليم فى المعاهد العلمية التى تدرس النحو كمادة أساسية مصرين على أن تدرس تلك الكتب القديمة بكل ما فيها . وواجب الطلاب والمعلمين أن يصبروا وأن يطيلوا الصبر على تجرع هذه الأدوية المريرة فإنها الشفاء الوحيد من داء الجهل . ويعلم الله أنها تزيد الداء شدة وبأسا ، فكم فى هذا النحو من فضول . هذه الأمثلة التافهة التى تحدثنا عنها فى حديثنا المـاضى وهذه الخلافات فيما لا يتصل بسلامة النطق كاختلافهم فى إعراب الأسماء الخمسة هل هو من مكانين أو من مكان واحد ، وكاختلافهم فى إعراب المثنى وجمع المذكر السالم : هل الألف والواو والياء إعراب أو حروف إعراب أو دالة على الإعراب أو إنقلابها هو الإعراب ؟ وهكذا من مثل هـذه الخلافات التى لا يقصد منها أكثر من إطالة الجدل والتمرن على صناعة الأدلة ؛ وهذه الخلافات ستكون موضوع حديثنا القبل — إن شاء الله — وهـذه العلل النحوية التى نحن بصـدد الحديث عنها الآن ، ما قيمتها ؟ ما جدواها على العلم ؟ ما مدى صحتها فى نظر العقل والمنطق؟ هذه أسئلة يجيب عليها بعض علمائنا السابقين، يجيبون عليها فى صراحة وصرامة بأنها تكثير فى مواد الكتب ولا غير ؛ ولكن بعض المؤلفين من علمائنا يؤمنون بأنها الزبدة والخلاصة

ومدرسو النحو المتعيشون من تدريسه يقسمون بالطلاق والعتاق وكل محرجة من الأيمان أنها الركن الركين فى دراسة النحو ، وأن الطالب إذا لم يحسنها فهو ليس بطالب ! وكم لقينا من أساتذتنا فى الامتحانات الشفوية من مشقة وإعنات فى سبيل هذه العلل وتخريجها وتطبيقها ، وكم لقى منا تلامذتنا فنحن نتفلسف أمامهم لنظهر قدرتنا وضعفهم : ونحن إذا عجزنا عن سؤال خالص سليم أغربنا عليهم بالسؤال عن العلة والقياس والدليل ، وبذلك نرضى عن أنفسنا حين نرى تخبطهم أمامنا وضربهم فى كل مذهب من القول والرأى

هذا بعض علمائنا يعلق على بعض الفقرات من كتاب من الكتب القديمة التى تحدثت عن هذا الموضوع فيقول : اشتهرت هذه الكلمة عن أدلة النحو وعلله وهذه كلمة من لم يمارس العلم الجليل ممارسة الباحث المنقب ولم يؤت سعة صدر تسهل عليه احتمال المكاره وركوب الصعاب فان آتاه الله نفاذ بصر وقوة عارضة وسعة إطلاع وكان مع ذلك عالما باستعمالات العرب خبيرا بما يكثر فى كلامها وما يقل وما يأتى على جهة الندرة والشذوذ ؛ إذا اجتمعت هذه الأمور لامرئ أدرك تماما أن هذه الأدلة التى يذكرها النحاة أدلة مستقيمة على أحسن وجوه البحث »

ومع احترامى لهـــذا الأستاذ الجليل أكره جد الكره أن يرمى كل إنسان يتكلم بمـا يخالف آراء بعض العلماء السابقين أن يرمى بالجهل وبعدم نفاذ البصر وسـعة الاطلاع وأن يرمى بعدم الصبر . وسأسوق طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن ليعرف من لم يعرف أن هؤلاء الذين تكلموا فى العلل النحوية لم يقولوا عن جهل باستعمالات العرب ولا عن ضيق فى آفاق عقولهم

يقول الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سـعيد ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة :

« فأما طريقة التعليل فإن النظر إذا سلط على ما يعلل النحويون به لم يثبت معه إلا الفذ الفرد ، بل ولا يثبت شئ

البتة : ولذلك كان المصيب منهم المحصل من يقول هكذا قالت العرب من غير زيادة ، فربما اعتذر المتذر لهم بأن عللهم إنما ذكروها وأوردوها لتصير صناعة ورياضة ويتدرب بهما المتعلم ويقوى بتأملها المبتدئ ؛ فأما أن يكون ذلك جاريا على قانون التعليل الصحيح والقياس المستقيم فذلك بعيد لا يكاد يذهب إليه محصل »

ويقول ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » ما نصه « فإن قيل لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من وضعها لما أقيمت الأدلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا ؟

فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلة واهية لا تثبت على محك الجدل . فإن هؤلاء الذين تصدوا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا . وإلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها ؟ »

وكلام ابن الأثير يذكرنا بما كان يقول لنا أشياخنا حين نجادلهم في مدى صحة هذه العلل فيقولون : إن علل النحو كالوردة تشم . . ولا غير ، كما تذكرنا بقول ذلك الشاعر الظريف في وصف صاحبته

ترنو بطرف ساحر فاتر كأنه حجة نحوى

وقد فصل قاضي القضاة ابن مضاء القرطبي في كتابه « الرد على النحاة » فجمل من العلل مقبولا ومردودا قال : ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثواني والثوالث وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا قام زيد لم رفع ؟ فيقال لأنه فاعل وكل فاعل مرفوع ، فيقول ولم رفع الفاعل . . ؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت به العرب ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر . ولو أجبت السائل عن سؤاله بأن تقول له : للفرق بين الفاعل والمفعول به فلم يقنعه ذلك وقال فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول ؟ قلنا له : لأن الفاعل قليل لأنه لا يكون للفعل إلا فاعل واحد والمفعولات كثيرة فاعطى الأثقل الذي هو الرفع للفاعل واعطى الأخف الذي هو النصب للمفعول . لأن الفاعل واحد والمفعولات كثيرة ليقل في كلامهم مايستثقلون . ويكثر في كلامهم ما يستخفون ؛ فلا يزيدنا ذلك علما بأن الفاعل مرفوع . ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذي هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذي يوقع العلم »

ثم يمضي ابن مضاء فيقسم العلل إلى ثلاثة أقسام . قسم مقطوع به . وقسم فيه إقناع . وقسم مقطوع بفساده . ويمثل لكل قسم من هذه الأقسام ثم ينهي القول بوجوب الغاء أكثر العلل النحوية لأنها لا تفيدنا شيئا في صحة النطق

حتى الإمام عبد القاهر الجرجاني وهو من علماء النحو المشاهير وكان يقال له « عبد القاهر النحوى » وله آراء تنقل عنه في كتب النحو وقد ألف في النحو كتاب « المغنى » على شرح الإيضاح في ثلاثين مجلدا

عبد القاهر هذا مع دفاعه الحار في أول كتابه (دلائل الإعجاز) عن النحو لم يستطع أن يأتي بما يقنع في الإبقاء على العلل النحوية . ويظهر أن الحملة على النحو لعهد عبدالقاهر كانت قوية وكانت منتشرة ولذلك نجده يبالغ في الدفاع حتى يجعل البلاغة هي توخى معاني النحو وليس غير ، وحتى يجعل التصغير من شأن النحو والتهاون به أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ؛ ومع ذلك لا يستطيع أن يقول عمن يزهدون في معرفة العلل إنهم أساءوا الاختيار ومنعوا أنفسهم ما فيه الحظ لهم ومنعوها الاطلاع على مدارج الحكمة وعلى العلوم الجمة ؛ ولكنه يسامحهم ويعذرهم . ولعل من الحسن أن ننقل كلامه في هذا الموضع حتى يكون القراء على بصر من نظرة القدامى المنصفين إلى هذا النحو حتى أصحاب النحو أنفسهم . قال الشيخ وهو يتحدث عمن زعموا

الاشتغال بالنحو وحطوا من شأنه « فإن قالوا إنا لم نأب صحة هذا العلم ، ولم ننكر مكان الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى، وإنما أنكرنا أشياء كثرتموه بها ؛ وفضول قول تكلفتموها ، ومسائل عويصة تجشمتم الفكر فيها ، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين وتعايوا بها الحاضرين ، قيل لهم : خبرونا عما زعمتم أنه فضول قول وعويص لا يعدو بطائل ، ماهو ؟ فإن بدءوا فذكروا مسائل التصريف التي يضعها النحويون للرياضة ولضرب من تمكين المقاييس في النفوس كقولهم كيف تبنى من كذا كذا ؟ وكقولهم ما وزن كذا ؟ وتتبعهم في ذلك الألفاظ الوحشية كقولهم : ما وزن عزويت ؛ وماوزن أرونان . وكقولهم في باب ما لا ينصرف : لو سميت رجلا بكذا كيف يكون الحكم؟ وأشباه ذلك. وقالوا أتشكون أن ذلك لا يجدى إلا كد الفكر وإضاعة الوقت ؟

قلنا لهم : أما هذا الجنس فلسنا نعيبكم إن لم تنظروا فيه ولم تعنوا به ، وليس يهمنا أمره فقولوا فيه ما شئتم وضعوه حيث أردتم . فإن تركوا ذلك وتجاوزوه إلى الكلام على أغراض واضع اللغة وعلى وجه الحكمة في الأوضاع وتقرير المقاييس التي اطردت عليها وذكر العلل التي اقتضت أن تجرى على ما أجريت عليه ، كالقول في المعتل وفيما يلحق الحروف الثلاثة التي هي الواو والياء والألف من التغيير بالإبدال والحذف والإسكان ، أو كـكلامنا مثلا على التثنية وجمع السلامة . لم كان إعرابهما على خلاف إعراب الواحد ؟ ولم تبع النصب فيهما الجر ، وفي النون أنه عوض عن الحركة والتنوين في حال وعن الحركة وحدها في حال ؟ والكلام على ما ينصرف وما لا ينصرف ولم كان منع الصرف وبيان العلة فيه والقول على الأسباب التسعة وأنها كلها ثوان لأصول ، وأنه إذا حصل منها اثنان في إسم أو تكرر سبب صار بذلك ثانيا من جهتين ؛ وإذا صار كذلك أشبه الفعل لأن الفعل ثان للاسم والإسم المقدم والأول وكل ما جرى هذا المجرى قلنا : إنا نسكت عنكم في هذا الضرب أيضا ونسامحكم فيه على علم منا بأنكم قد أسأتم الاختيار ومنعتم أنفسكم ما فيه الحظ لكم ومنعتموها الاطلاع على مدارج الحكمة وعلى العلوم الجمة »

ونستطيع من كلام الشيخ عبد القاهر هذا أن نأخذ دليلا واضحا قويا من عالم نحوى عظيم بأن هذين البحثين مبحث التمارين العملية ومبحث العلل، لا ضرورة لهما لمن يريد أن يعرف القواعد النحوية التي تمكنه أن يأمن الخطأ إذا خاض في التفسير وتعاطى التأويل وإن كنا نزيد على ما قاله الشيخ مباحث أخرى كالاختلافات الكثيرة التي لا تتصل بصحة النطق ، والتي لا جدوى منها مطلقا ...

ولو أننا جردنا النحو من كل هذا الفضول لاستطعنا أن نحصل ما بقي من القواعد الأصلية في زمن وجيز . ولكن المؤسف حقا أن يقضى الطالب — في الأزهر مثلا — ثلاثة عشر عاما يدرس النحو ثم يخرج إلى المدارس أو إلى المعاهد ليعلمه ثم هو بعد كل ذلك لم يحصل منه على طائل ولم يستطع أن يقيم لسانه من الخطأ !

ولقد قال صاحب كتاب « الإرشاد والتعليم » عن السبب في هذه الحال « أن كتب النحو التي يؤخذ منها في عامة البلاد هي من أحط الكتب قدرا وأكثرها حشوا وأقلها فائدة وأن الاشتغال بها قاطع عن علم العربية لا مفض إليه »

وإنى أدعو — هنا — كما دعا عدد غير قليل من قبلى إلى طرح هذه الكتب التي ألفت في العصور المتأخرة وإلى تنقية النحو من كل ما سبقت الاشارة إليه . ويجب ألا يثنينا عن ذلك غضبة جماعة ألفوا هذه الكتب ودرسوا النحو على تلك الطرق الملتوية فإنهم لا يقولون إلا كما قال الأخفش للجاحظ ، قال الجاحظ « قلت لأبي الحسن الأخفش. أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما لك تقدم

شعر مختار

بلا أمل !

يا ... أنت
لقد عجب الناس من صمتى الذى
طال ، وظنوا بى الظنون !
وما صمت ، ولكنى كتمت ...
واليوم أبوح ! الشاعر الحائر !

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

تغنى بها قلبى ، وغنت رسائلى
وإن كنت أهواها على غير طائل !
عرفت هواها حين صرت مقيدا
بأخرى ، لها شأن كشأن المقاتل
ولو علقتها النفس ، وهى طليقة
لما قام فيما بيننا أى حائل

بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجاتهم إلى فيها ... وإنما قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت »

وما ننكر أن فى هؤلاء الذين يعكفون على النحو من خلصت نياتهم وسمت أغراضهم ، ولكنهم يمارون ويضنون بما ألفوا ؛ فلنكن أكثر إخلاصا وأشد طلبا لما عند الله . ولنزح المعلمين والمتعلمين من هذا الجدل العقيم الذى لا فائدة منه إلا ضياع الوقت وتصديع الرؤوس

علي العماري

كذلك حظى ... حرقة وتشوق
إلى كل ممنوع على كل سائل !
ولو كان قلبى لا يضل مع المنى
لطابت حياتى ، واطمأنت بلابلى
ولكنه يمضى إلى غير غاية
وراء الأمانى سادرا غير حافل
كأنى به فى لجة البحر زورقا
يسير ولا يدرى إلى أى ساحل
تعلقت يا قلبى بحب مضيع
كما علقت طير الربا بالحبائل
نصيبك منه الوجد والسهد والجوى
ولهفة زهر ثاكل النبع ذابل
وحظك منه غيرة مستبدة
لها فى دمى غلى كغلى المراجل
كأن سهاما أطلقتها يد الأسى
فرت فقرت كلها فى مقاتلى
نصيبك منه أن ترى الحسن زاهيا
وترحل عنه ، والأمى غير راحل
وأن ترد الينبوع كالطير ظامئا
وترجع مقهور المنى غير ناهل
ولست على ما كان منك بلائم
ولست على ما كان منها بعاذل
فإن الهوى معنى سنى مقدس
تسامى ، فلا تلقى له من مماثل
وإن الهوى سر خفى محير
فلا يدعى علما به غير جاهل
وإن الهوى ما ضمه قلب عاشق
وليس الهوى ما ضمه قول قائل
صحبت الهوى طفلا صغيرا ويافعا
وما زال بى حتى استقر بداخلى

فأحسسته نبعا جرى فوق ماحل
بعمرى ، فواها إذ غدا غير ماحل !

وأحسسته نورا يعانق مهجتى
وينساب فى قلبى انسياب الجداول

وأحسسته شعرا يغنيه خافقى
فترويه عنه شاديات الخمائل

وأحسسته سحرا تسرب فى دمى
كما غاب فى الصهباء ماء المناهل

وأحسسته عطرا يبوح لعالمى
بأسرار ما ضمت رقاق الغلائل

وأحسسته خمرا ترنح مهجتى
كما رنح الأزهار قر الشمائل

وأحسسته طيرا يرفرف شاديا
بآفاق أيامى كشدو البلابل

وإنى لأهوى الحب حتى لو انه
يعذب قلبى بالشقاء المواصل

عرفت به معنى الحياة وروحها
وأدركت سر الكائنات الأوائل

وردت به فى كل حين مجاهلا
فأحدثت لى علما بتلك المجاهل

وعشت به عمرا قصيرا ، وإن يكن
بأسراره فوق المدى المتطاول

فياحبها زدنى التياعا وحرقة
وهب لى لهيبا فى الحشا غير زائل

فإن لهيب الحب يذكى مشاعرى
فينساب منها مثل ضوء المشاعل

ويا من رمانى الدهر فيها بنأيها
وضن على قلبى بسحر التواصل

ومن جن قلبى فى هواها صبابة
وإن كان عقلى لم يزل شبه عاقل !

هبينى أضعت العمر فيك ، ألم أفد
من الشعر مجدا عمره غير آفل ؟

وإن كان قلبى أصبح اليوم يائسا
فما كان يوما فى هواك بآمل !

ولست بناس إذ بعثت رسالة
إلى بأمر من وصالك عاجل

فجن خيالى باللقاء وسحره
وصور لى أنى سأحظى بنائل

وأنك قد وافيتنى فى خميلة
عليها نسيج من ضياء الأصائل

فأمسكت كفى بين كفيك ساعة
فأسكر روحينا عناق الأنامل

وأنشدت شعرى فيك ، وهو مدامع
من القلب ، أصفى من دموعى السوائل

وغنيتنى شعر الهوى ، فكأننى
ذهلت عن الدنيا ، ولست بذاهل

وأنا أقمنا وحدنا طول عمرنا
فأصبحت لى وحدى برغم الحوائل

ولكن حظى كان حظى ! فأخطأت
خطاك مقامى بين تلك المنازل

وعشنا على الأوهام ، تجمع شملنا
رسائل حب .. يا لها من رسائل !

وما فى يدينا غير أوهام موعد
وأحلام لقيا كالورود الذوابل

فلا تحسبى أنى سأنساك لحظة
فإنك شغلى دون كل الشواغل

سأحيا على حبيك ما دمت باقيا
وإن كنت أدرى أن حبك قاتلى

إبراهيم محمد نجا

أخبار أدبية وعلمية

« فضيحة » أدبية جديدة فى فرنسا يسببها اليهود

هذا مثل جديد على نفوذ اليهودية العالمية فى حلقات الأدب العالى فوق نفوذهم فى عالم المال والسياسة الدولية

فقد حدث مؤخرا أن نال كاتب رومانى يقيم فى باريس جائزة أدبية رفيعة لكتاب نفيس بعنوان « الساعة الخامسة والعشرون » . وقد كالت الأوساط الأدبية المديح لهذا الكتاب الذى قام الفيلسوف الفرنسى جابريل مارسيل بتقديمه إلى حلقات الأدب الفرنسى

ولكن حدث بعد ذلك أن اكتشفت إحدى الجمعيات اليهودية الفرنسية أن قد سبق لهذا الكاتب الرومانى رابح الجائزة أن وضع كتابا منذ بضع سنوات يثنى فيه على النازية ويوجه بعض النقد لليهودية العالمية ونشاطها الأنانى الواسع النطاق

وسرعان ما سحبت دور النشر والكتب المؤلف الجديد من نوافذها (ومعظم دور النشر والكتب فى فرنسا وغيرها من العالم الغربى يملكها اليهود) وأعلن السيو جبريل مارسل براءته من المقدمة التى وضعها لكتاب « الساعة الخامسة العشرون » وأظهر سخطه على مؤلفه

كتاب جديد عن « جورج صاند » الشاعرة الفرنسية

أعلنت مدام أندريه موروا أرملة الكاتب الفرنسى الذى توفى مؤخرا أنها فى سبيل الفراغ من كتاب عن « جورج ساند » الشاعرة الفرنسية الخالدة الذى كان زوجها قد أنجز الجزء الأكبر منه قبل الوفاة وقامت هى بإتمامه

رأى طريف فى تطور الإنسان

يدعى الأستاذ جوليان هكسلى أحد أقطاب علم الحيوان والرئيس الأسبق لمؤسسة (اليونسكو) فى كتاب صدر فى بريطانيا هذا الشهر أن حلقة التسلسل الذى ابتدأت بتطور الإنسان من (نطفة فعلقة) قد انتهت فى الصورة التى يخلق الإنسان فى العصر الحاضر على شاكلتها ، وأن لا سبيل إلى أى تطور بيولوجى جديد فى تكون بنى آدم بعد « الكمال » الجسمانى الذى وصلوا إليه فى التكوين الجسمانى والعقلى الذى هم عليه الآن . وأن على الإنسان فى عالمنا الحاضر أن يسعى ما استطاع لكى يحتفظ بهذا التكوين وأن يتفادى كل ما من شأنه أن يخلق فيه تشويها يؤثر فى النسل والأجيال القادمة

والأستاذ هكسلى ينتمى إلى بيت خاصم النظرة الدينية للخلق وكان جده الأكبر أول من ناصر شارل دارون صاحب نظرية النشوء والارتقاء مما أثار عليه حفيظة الكنيسة المسيحية والذين يؤمنون بوجهة نظر الأديان السماوية فى أصل الإنسان وتطوره

ولا تزال بعض كتب هكسلى محرمة على المسيحيين الكاثوليك

التوسع فى تدريس العلوم الاجتماعية

فى نشرة (اليونسكو) نبأ عن ازدياد الرغبة فى نشر العلوم الاجتماعية فى المدارس الثانوية والمعاهد العليا فى معظم أنحاء العالم . وتقول النشرة بأن الحكومات الأسيوية قد غمرت اليونسكو بالطلبات راغبة معونتها فى تأسيس كراسى جامعية لتدريس العلوم الاجتماعية على أحدث الأساليب

حملة جديدة لترويج متعة القراءة النافعة

اشترك ٦٧ قطباً من أقطاب الأدب والفن والثقافة بمختلف أنواعها من أوربا والعالم الجديد فى شن حملة دعاية واسعة لترويج قراءة الكتب على نطاق واسع بعد أن انتشرت ألوان من المتع الرخيصة التى همها التسلية لا تربية الذوق ولا توسيع المدارك — كالسينما والصحف السيارة

وأبواب الأدب الرخيص والقصص المبتذلة التي تسود معظم الإنتاج الصحفي وبعض المجلات الواسعة الانتشار

وقد قام كل من هؤلاء الأقطاب بوضع بحث دقيق بليغ عن اختباره في تذوق الثمة الصافية التي توفرها الكتب الجدية والأدب الرفيع والفن الخالص كما تنقله مجلات الاختصاص في شتى اللغات

وقد تعهدت دور النشر في أمريكا وأوربا الغربية بترويج هذا الكتاب الجديد على نطاق شعبي واسع بتخفيف ثمنه وتوزيعه على طلبة المدارس العليا وعلى الجامعات وعلى المؤسسات الثقافية والاجتماعية والرياضية

قصة الذرة

تعزم دور النشر في أمريكا بتبسيط العلوم الطبيعية لغير أهل الاختصاص بصياغة البحوث العلمية في قالب أدبي يسهل هضم محدثاته العلمية الجافة . ومن هذا القبيل كتاب جديد عن « قصة الذرة » راج في الأسواق الأمريكية مؤخرا ، وهو يستعرض تاريخ الذرة ويرجع إلى عصر اليونان ليثبت أن غرام علماء الطبيعة باكتشاف سر تركيب الذرة كان سابقا لجهود الألمان (ومن بعدهم الأمريكان والروس) في صنع القنابل الذرية والأسلحة الفتاكة المتفرعة عنها

الذكر ــ الأنثى

يبدو أن بلاد الدانمارك تمتاز بخاصة غريبة مزعجة ، وهي كثرة الشبان الذين تحولوا إلى شابات فيها . وقد تكررت هذه الظاهرة الغريبة في الدانمارك في الآونة الأخيرة. ومن الأنباء الطريفة أن أحد هؤلاء الذين اختبروا حياة الذكر والأنثى (كرتسين جوركينسون) الجندي السابق في الجيش ، الذي تحول إلى فتاة رشيقة منذ بضعة أسابيع سيقوم بوضع ترجمة لحياته يشرح فيها بصراحة اختباراته الغريبة . وقد ابتاعت إحدى دور النشر في أمريكا حق نشر هذا الكتاب مقابل ٢٠ ألف دولار نقدا

عربي في أمريكا ينشئ مجلة أدبية انجليزية

قام السيد منصور أبو رجيله (أحد المهاجرين السوريين في أمريكا) بإصدار مجلة دورية جديدة تقتصر في بحوثها على إنتاج الأدباء المغمورين ولا تستكتب أحدا من الكتاب المعروفين . واسم المجلة الجديدة « اكتشاف »

وقد لقي العدد الأول منها رواجا كبيرا

طريقة مبتكرة لبيع الدواوين الشعرية

دواوين الشعر في جميع اللغات محدودة البيع بالقياس إلى المؤلفات الأدبية والثقافية الأخرى

وقد اكتشفت دور النشر التي تتولى طبع أشعار « كارل ساندبرغ » الشاعر الأمريكي المعروف طريقة جديدة لبيع دواوينه إذ كلفته بأن يجلس وراء مائدة في مقهى شعبي ويوقع إمضاءه على كل نسخة تباع . وانتشر الخبر في الناحية واستطاع الشاعر أن يبيع أكثر من ٦٠٠ نسخة وهي فوق ما بيع من الكتاب في سنة بأكملها

الطفولة في أدب التراجم

يدور في أوساط الأدب الأنجلوسكسوني هذه الأيام نقاش حول أدب التراجم . فقد اشتد في السنوات الأخيرة غرام الأدباء في كتابة سيرهم ؛ وقال النقاد إن أبلغ ما في هذه السير هي الحقبة الأولى من عمر الأديب — طفولته ! وفتوته وشبابه . أما خريف الحياة فلا يوحي بأي متع عقلية أو أدبية . وخالف بعض النقاد والأدباء هذا الرأي ، وقالوا إن حقبة الطفولة والفتوة تكون عادة زاخرة بألوان المتع الحسية التي تنافس المتع العقلية منافسة جدية

ويقول المستر فان دروتن أحد كبار كتاب المسرح (وهو هولندي الأصل انجليزي الثقافة) إن الأديب حين

بجلس ليستعرض نموه الفكرى فى ثنايا الأعوام لا يجد لذة أعمق من تلك التى يستوحيها من ذكريات الطفولة وحقبة الشباب والفتوة ، وعلى ذلك فإن تسجيله لهذه الذكريات هو فى الواقع إبداع أدبى يصور فيه الأديب تلك الذكريات على نحو مايصور القصصى أبطال رواياته وحوادثهم

ويستشهد كاتب آخر بالشغف الذى يملكنا جميعا حين نجلس إلى الشيوخ من عائلتنا يقصون علينا حوادث طفولتنا فيكشفون لنا عن عالم يلهب فينا الخيال ويبعث فى أنفسنا الرضى أو السخط وحسن ما تثيره الانفعالات التى تكتنف الأديب حين ينظم أو ينثر

مجلد جديد فى الموسوعة الروسية

صدر هذا الأسبوع مجلد آخر من الموسوعة الروسية الجديدة التى يعدها العهد السوفيتى لتكون مرجعا للثقافة الروسية شأن الموسوعات « القومية » الأخرى .

وفى هـذا المجلد الجديد بحث طويل « عن اليهود » ويؤكد كاتب البحث بأن « اليهودية » ليست أكثر من مذهب دينى لايستند إلى عنصر أو أقليم معين وليس لها طابع « القومية » التى تدعى الحركة الصهيونية بأن اليهود علم عليها

وتهاجم الموسوعة الروسية الصهيونية مهاجمة شديدة وتقتبس آراء لينين وستالين عن الصهيونية ، ويرجع تاريخ هذه الأراء إلى ثلاثين عاما . وتقول الموسوعة بأن إسرائيل (وهى رمز القومية الصهيونية) ليست إلا نقطة ارتكاز للاستعمار الأمريكى بعد أن كانت من قبل مركزا للاستعمار البريطانى

وتستعرض الموسوعة المجهود الذى قامت به الحكومة الروسية لإنشاء ولاية سوفيتية خاصة باليهود الروس فى « بيروبايجان » يكون شأنها شأن معظم الولايات « القومية » الأخرى التى تكون الاتحاد السوفيتى « كارمينيا » « وجورجيا » و « وأوكرانيا » والولايات السوفيتية الآسيوية التى يقطن بعضها أكثريات إسلامية

وسبب فشل هذا المجهود الروسى يعود إلى تعلق اليهود بحياة المدن التى توفر لهم فرصا ذهبية لجمع المال بسرعة وخصوصا فى العواصم والثغور التى يشتد فيها النشاط التجارى

وتدعى الموسوعة الروسية بأن النظام الشيوعى السوفيتى قد وفر لليهود ولجميع الأقليات الطائفية الأخرى فى روسيا فرصا للاندماج فى بوتقة الاتحاد السوفيتى ولذلك فإن ميل بعض العناصر اليهودية الروسية إلى الصهيونية وإسرائيل أمر تكافحه الحكومة الروسية الآن

آراء وأنباء

مدرسة الرسالة في السنغال

أجد من الأمانة أن أنقل إلى صاحب الرسالة وإلى قرائها هذه القصة ، فهى تسجل فضلا من أفضال «الرسالة» التى أدتها وما تزال تؤديها إلى العربية « لغة القرآن » . أما فى هذه المرة فقد امتد الفضل بعيدا عن مركز الدائرة إلى ٩٥٠٠ كيلو مترا عندما دخلت الرسالة مدينة (داكار) حاضرة السنغال

كنا نسمر يوم السبت الماضى فى ندوة «الكيلانى» وقد أم الندوة لفيف من أهل العلم والفضل منهم عطوفة السيد أحمد حلمى زعيم فلسطين ، والسيد مفتى الجزائر ، والإمام البشير الإبراهيمى ، والأستاذ الفضيل الورتلانى

وبينا نحن جلوس إذ قدم إلينا صاحب الندوة رجلا أسود اللون ، يلبس العقال العربى عرفنا من بعد أنه حجازى الأصل ، وأنه هاجر منذ اثنى عشر عاما إلى السنغال : هو السيد محمود عمر الذى يشغل الآن منصب مدير المعارف الأهلية بالسنغال . ومعه طالبان سنغاليان .

وأخذ يروى الأستاذ كامل الكيلانى قصة عجيبة ، هى أن الشاعر الأستاذ محمود غنيم كان قد التقى فى الندوة بهذه الجالية السنغالية ، فما إن عرف أحد الشبان اسمه حتى استأذن فى أن يقول شيئا ، فلما أذن له فاجأ الحضور بقصيدة طويلة من شعر غنيم . .

.. وتوقف الأستاذ الكيلانى ليتم القصة السيد عمر فقال : منذ اثنى عشر عاما عندما فكرت فى أن أسافر إلى السنغال لأعلم اللغة العربية لأهلها ، لم يكن فى استطاعتى الحصول على شئ مطلقا من المؤلفات أو الكتب نظرا لبعد المسافة وطول الشقة .. وعدم وفرة هذا النوع من الكتب فى الحجاز ، ولذلك صح عزمى على أن أحمل معى كل ما كان عندى من أعداد مجلتى الرسالة والإسلام ، وقد بلغت خمسة آلاف عدد لأنى حرصت أن أحصل على أكثر من نسخة للعدد الواحد ما أمكن ذلك . وكان هنالك فى السنغال ٣٠٠ طالب يلتفون على كل عدد من الرسالة لينقلوا منه شعره ونثره ليحفظوه عن ظهر قلب . وقد استطعنا بهذه الطريقة وحدها ، وعلى يدى مجلة الرسالة أن نعلم اللغة العربية لثلاثة آلاف وخمسمائة من الطلاب الخ . .

وهنا وقف هذا الشاب الأعجمى العربى ... كما أسماه الأستاذ الإمام السيد البشير الإبراهيمى ... وأخذ يتلو هذه القصيدة العامرة التى كان الأستاذ محمود غنيم قد أنشأها فى عدد من أعداد الهجرة الممتازة التى كانت تصدرها « الرسالة » فى مستهل العام الهجرى من كل سنة ، والتى نرجو ألا تحرمنا منها

وكنا نستمع إلى الشاب الأعجمى العربى وهو يتلو هذا الشعر فى لكنة خفيفة ، وقد بدت تلك المعانى أكثر جلالا ، فكانت تهز النفس هزا ، وتبعث ذلك الإحساس القهار حينما نرى شابا حدثا من السنغال على بعد الشقة يحفظ هذا الشعر ويتلوه ويترنم به ..

ولقد علق السيد البشير الإبراهيمى على ذلك بقوله : إننى قرأت هذه القصيدة عندما نشرت لأول مرة ، وقرأتها مرة أخرى هذا الأسبوع فى ديوان الشاعر .. ولكنى لم أهتز لها كما استمعت إليها الليلة من هذا الشاب العربى الأعجمى

ومما يذكر فى هذا المجال أن هؤلاء الشباب كانوا قد أفادوا فى بدء تعلمهم اللغة العربية من قصص الأطفال التى كتبها الأستاذ كامل الكيلانى ، ولذلك كانوا غاية فى السرور عندما صادفتهم بالقاهرة واجهة دار مكتبة الأطفال ودار الرسالة ، فقد صفقوا طويلا عند كل واحدة ، وهتفوا وهم يعجبون فيما بينهم كيف تحقق حلمهم البعيد وعاشوا

لحظة فى هذه الأماكن التى نلقوا عنها فى أواسط إفريقيا لغة الضاد

ولذلك رأيت أن أسجل هذه القصة وأن أبعث بهما إلى صاحب الرسالة تحية بجددة لفضل الرسالة على شباب العروبة ، هذا الفضل الذى يمتد إلى كل مكان

أنور الجندى

إلى أخى الأستاذ سيد قطب

قلت فى كلمتك القيمة (وكل كلامك قيم) فى العدد ١٠٢٢ من الرسالة ، أن عدالة السماء لا تمنع القاضى الذى « يصدر الحكم ثم تبين له خطؤه أن ينقض حكمه بنفسه » والذى أعرفه أن القاضى فى الإسلام ليس له أن ينقض حكما أبرمه ، لأن مضرة اضطراب الأحكام ، وتعرضها أبدا للنقض بعد الإبرام ، أكبر فى نظر الشرع والعقل من مضرة الخطأ فى حكم واحد ، والقاعدة أنه إن لم يكن بد من أحد الضررين يرتكب أخفهما وإلا لم تبق للقضاء قيمة ، ولا للأحكام ثبات ، وعمر لما تبدل اجتهاده ، لم ينقض ما كان أبرمه ، بل حكم بغير ما كان حكمه ، وقال : « تلك كما قضينا وهذه كما نقضى » والمسألة مشهورة وأقوال فقهائنا كثيرة معروفة

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

علي الطنطاوي

حول كلمة قدوم

قرأت ما كتبه الأستاذ على حسن هلالى فى العدد الأخير ١٠٢٢ من مجلة الرسالة عن — القدوم — تحت عنوان (لغويات) فرأيت أن أقول كلمة فى هذا الموضوع

ومن الرجوع إلى مؤلف (الرأى الحاسم ، فى الكلام الصحيح الذى خلت منه المعاجم) للشيخ أمين ظاهر نجده قال : ويجمع قديم على قدم كعتيق على عتق وكذلك قدوم (بمعنى مقدام) على قدم قال حسان :

ليوث إذا غضبوا فى الحروب   لا ينكلون ولكن قدم

وفى المعاجم أن القدم مفرد صفة للشجاع ، فلو صحت هذه لكانت كجنب وهى فى الأصل جمع جنيب . وزعم الصباح أن قدما جمع قدوم بمعنى آلة النجارة . على أن شعر حسان يأتى بقدم جمعا لقدوم بمعنى مقدام . والقياس يقبله مثل صبر جمع صبور . ومجئ جمع قدوم اسم آلة وجمع قدوم صيغة مبالغة على وزن واحد يتنافى مع حكمة ؛ اللغة فالخال بمعنى الشامة والخال بمعنى أخى الأم يتفقان فى اللفظ المفرد ويختلفان فى صيغ الجمع . وهذا بحث لم يرد فى معجم ولا فى كتاب صرفى . فعلى من يطن فى نفسه اقتدارا على وضع معجم أن يتجرد له ويثبت بالدليل العلمى بصيغة جمع قدوم بمعنى مقدام وصيغة جمع قدوم بمعنى آلة النجار فى قول الشاعر :

فقلت أعيرانى القدوم لعلنى   أخط به قبرا لأبيض ماجد

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر أقول : إن المؤلف المذكور كان ذكر فى أول كتابه المذكور — وإن شئت فسمها رسالته — بأنه يتعهد بالجوائز الآتية لمن يحل القضايا اللغوية الآتية :

١ — ذهب واحدة أى جنيه : لمن يجئ بالفرق بين جمع قدوم بمعنى مقدام وقدوم بمعنى آلة النجار

٢ — عشر ذهبات : لمن يجئ بمفردات الجموع التى أوردها الجاسوس على القاموس فى صفحاته من ٢٠٧ — ٢١٠

٣ — خمس ذهبات : لمن يجئ بأجوبة القضايا السبع الواردة فى الصفحتين ٥٢ و٥٣ من تلك الرسالة . وقد اشترط على من يجيب

ا — أن يأتى بالقواعد التى يبنى عليها حكمه

ب — أن يؤكد كلامه بالتنظير الصحيح

جـ — ولا يتعهد بشئ لمن يعجز عن الوفاء بهذين الشرطين أو من يبنى على قاعدة لا تصح . ولئلا أكلف القارئ مؤونة الرجوع إليها أنقلها هنا إليه بالحرف الواحد وهى :

١ — كيف جاء ارعوى من رعا ؟

٢ — جاء فى شعر حسان :

فتشهد أنك عبد المليك أرسلت نورا بدين قيم

ولم يرد قيم فى المعاجم فكيف يجب ضبطه ومن أين جيء به ؟

٣ — روى الجاحظ عن ابن الأعرابى فى كتابه البيان والتبيين ماياتى :

ليس يستوجب شكراً رجل نلت خيرا منه من بعد سنه
كنت كالهادى من الطير رأى طمعاً أدخله فى سجنه

فكيف يضبط سجنه ومن أين وردت هذه الصيغة ؟

٤ — قال مسلم بن الوليد

ومجهل كاطراد السيف محتجز
عن الأدلاء مسجور الصياخيد
كأن أعلامه والآل يركبها بدن توافى بها نذر إلى عيد

فكيف يضبط نذر وما الدليل على صحة الضبط ؟

٥ — جاء فى ديوان جرير للبعيث قوله

وجئنا بأسلاب الملوك وأحرزت
مناصلنا مجد الأربة والأكل

فكيف يصح ضبط الحرفين الأخيرين من العجز وكيف يؤتى بالدليل على صحة اللفظ ؟

٦ — فى القاموس علية القوم وعليهم — بكسر فسكون — أى جلتهم فما هذان الحرفان ؟

٧ — كم جما لنار وكم جما لنور . وهل كل منهما أصل مستقل أو أحدهما فرع عن الآخر ؟

وبعد هذه السياحة الطويلة أقول — وأرجو ألا أذيع سرا — أننى كنت ليلة ١٤ / ١٢ / ١٩٤٧ أصغى إلى سلسلة أحاديث الأستاذ السيد عادل جبر — عضو مجلس الأعيان العالى الأردنى الآن — التى كان يذيعها من محطة القدس وعنوانها — خواطر فى اللغة والأدب — وقد ذكر بأن قدوم مؤنثة جمعها قدم واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد
نفخت مشافره الشمول فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد

وبعد ذلك كتبت له كتابا ذكرت له به ما ذكره الشيخ أمين فى كتابه المذكور فتفضل على بجوابه المؤرخ فى ٢٧ / ١٢ / ١٩٤٧ الذى قال فيه إن الشيخ أمين وقع فى خطأ فى بيت الشعر الذى استشهد به وزاد أن الرواية الصحيحة هى :

فقلت أعيرانى القدوم لعلنى أخط بها قبرا لأبيض ماجد

وذكر بأنه رآها فى كتاب — المخصص — لابن سيده وأن جمع — قدوم بمعنى مقدام — قدم — كصبور وصبر وأن هذا لاخلاف فيه . وأما قدوم — آلة النجار — فانها تجمع على قدم و — قدائم — كما ورد فى أمهات كتب اللغة — دون أن يذكر شيئا منها — وأضاف إلى ذلك أنه لا غضاضة فى أن تأتى صيغة الجمع واحدة لكلمتين مختلفتين فى المعنى لأن جموع التكسير سماعية كلها . وأن السلف الصالح يقول بأن سياق الكلام كفيل بالدلالة على المعنى المراد ، وأن مما جاء على صيغة — قدائم — جمعا الآلة عجوز وعجائز . وأنه يحضره من الأمثلة على اتفاق صيغ الجمع مع اختلاف صيغ المفرد قول — صاحب فقه اللغة — الإمام الثعالبى

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

فإن البلابل الأولى جمع بلبل وهو الطائر الغريد المعروف ، والثانية جمع بلبال أى الهم والبرحاء فى الصدر ، والثالثة جمع بلبلة وهى قناة الإبريق التى يصب منها الماء والشراب . وأن العيون للماء والنواظر . والوجوه جمع وجه الإنسان وجمع ذوى الوجاهة وهلم جرا

شرق الأردن **أحمد الظاهر**

محاضرات ومناظرات

أداة الحكم على ضوء فلسفة العهد الجديد واتجاهاته

كانت هـذه المحاضرة ختام السلسلة الأولى من المحاضرات العامة التي نظمها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية في موضوع (العهد الجديد — فلسفته واتجاهاته في بناء المجتمع المصرى) وقـد ألقاها الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، وهو فى هذا الموضوع حجة ، فكانت الأرقام والإحصائيات تنطلق من فمه وكأنه يقرأ فى كتاب مفتوح ! ونلخص المحاضرة بما يأتى :

يمكننا أن نحدد اتجاهات العهد الجديد فى كلمتين : إصلاح ونهوض ، إصلاح فى الريف وفى المدينة وفى مرافق الحياة وفى أداة الحكم ، ونهوض بمصر يسمو بها إلى مكان الصدارة بين الأمم . ولستم فى حاجة إلى أن أذكركم بهذا الرمز الثلاثى الذى جعله العهد الحاضر شعاراً له وهو (الاتحاد والنظام والعمل) .. اتحـاد يقضى على الفرقة القضاء الأخير ، ونظام يمحو الفوضى محوا أبدياً ، وعمل منتج مثمر خصب يأخذ بيد مصر إلى المكان الذى ترمقه وتبتغيه .

فما هى الصورة التى ينبغى أن تكون عليها الأداة الحكومية لتتلاءم مع هذا العهد الجديد ؟

الأداة الحكومية جهاز يجب أن يجارى الزمن ، وإذا لم يؤد الجهاز وظيفته ولم ينهض بالغرض الذى خلق من أجله وجب تعديله وتحويره . وفى كل البلاد يعملون على تعديل الأداة الحكومية وتنقيح نظمها وقوانينها حتى تتفق مع سير الزمن وتطورات الحياة ، وقد رأيناهم فى الولايات المتحدة مثلا قد شكلوا لجنة سنة ١٩١٢ م ، ثم شكلوا لجنة أخرى سـنة ١٩٤٣ م ، وقضت اللجنة الأخيرة التى كان يرأسها رئيس الجمهورية نفسه عامين كاملين فى اجتماعات متواصلة وانتهت بتعديلات جوهرية بعيدة الأثر فى إصلاح الأداة الحكومية عندهم

وللأداة الحكومية — كما تعلمون — وظيفتان : إشراف وتوجيـه ، عمل وتنفيذ . وإن ما نراه اليوم من أنظمة حكومية يرجع إلى سنة ١٨٨٣ م إذ حاول اللورد (دوفرين) أن يضع مبادئ النظام الحكومى فعنى بالجزئيات والشكليات وأغفل الجوهر ! ثم حصل أن شكلت عندنا لجان بعد لجان ، ولكنها — جميعا — كان كل وكدها أن تعالج شئون الموظفين من علاوات إلى ترقيات إلى غير ذلك ! وليست المشكلة مشكلة الموظفين فقط ، ولكنها مشكلة الأنظمة واللوائح والأساليب العتيقة الركيكة المتعفنة التى يعمل الجهاز الحكومى فى ظلها ، والبطء الذى يشبه الموت فى سير الأعمال الحكومية . ولعلكم تذكرون حكاية الأستاذ نجيب الريحانى عن الورقة التى انتقلت من العباسية إلى الجيزة فى ثلاث سنوات !

.. إن جهازنا الحكومى غير منتج ، وإذا أنتج فإن إنتاجه كثير التكاليف ، فعلينا أن نختزل الكثير والكثير جدا من خطوات الأعمال الحكومية التى لا طائل وراءها سوى الأبهة للرؤساء والصولة لأصحاب النفوذ !

هل أدت السينما المصرية رسالتها نحو المجتمع ؟

كان هذا الموضوع محل مناظرة حامية بدار نقابة السينمائيين المصريين مساء الأحد الماضى ، رأسها الأستاذ الرقيب أنور حبيب ، وحضرها الأستاذ محمد فؤاد جلال وزير الإرشاد القومى الذى افتتح المناظرة بكلمة اعترف فيها أن السينما إحدى السلطات الكبرى فى الدولة ؛ لأنها توجه عقول الناس والعقول هى التى تحكم ، ولأنها يغشاها الناس جميعهم على اختلاف أعمارهم وثقافاتهم ، وهذه الجماعات هى أساس الديمقراطيات الحديثة التى تعتمد عليها

الحكومات وتلتمس ثقتها وتأييدها

وقد تكلم مؤيداً للرأى الأستاذان رشيد النحال ويوسف وهبي ، وتكلم مخالفاً له الأستاذان أحمد بدرخان وعبد النعم شميس . وكان الوقت المقسوم لكل منهم ربع ساعة ولكنهم بعد أن انتهوا من كلامهم عادوا فتكلموا مرة أخرى ، واشترك بعض الحاضرين فى المناظرة ، وحمى وطيس الجدل ، وانقسم المستمعون قسمين متناجزين بالتصفيق والهتاف والعبارة !

وقد جرت المناظرة على الوجه الآتى — فى إيجاز — :

تكلم الأستاذ رشيد النحال فذكر أن الدفاع عن قضية السينما إنما هو الدفاع عن رواد السينما القدامى الذين انحسرت عنهم كل معاونة وحرموا كل تشجيع . ولا تنتظروا أن أقول إن السينما قد بلغت عندنا مثل الذى بلغته فى أوربا وأمريكا ، ففى انجلترا — مثلا — يغشى دور السينما ثلاثون مليونا من الناس ، وفى أمريكا يغشاها مائة مليون . أما فى مصر فما زال الناس يرونها وسيلة للتسلية وتزجية للفراغ ! وما زالت الدولة تأبى أن تمد لها يد المساعدة الجدية النافعة . لذلك وقف جهد رجال السينما عند حد لم يستطيعوا أن يتجاوزوه ولم يكن فى وسعهم — وهم بشر كسائر الناس — أن يصلوا إلى أبعد منه . وقد أعطت السينما فى مصر للدولة وللناس أكثر مما أخذت، ونهضت وجاهدت واحتملت الكثير من مصاعب الجهاد ولم تلق من الجزاء إلا صيحات الهدامين الذين كل همهم الهدم والهدم دون سواه . وقد يأخذ البعض على السينما أنها كثيرا ما تجنح إلى أن يكون أبطالها من التافهين الذين يروقون فى أعين الجماهير الساذجة ، فأقول لها كلمة صريحة لا لبس فيها ولا التواء : — إن الرقابة هى المسئولة عن ذلك وهى التى كانت تطلب أن يكون أبطال الأفلام من هذا النوع التافه الرخيص دون سواه

وتكلم بعده الأستاذ أحمد بدرخان قائلا : أعترف لكم — قبل كل كلام — أن السينما لم تؤد واجبها نحو المجتمع . ولكن على من تقع مسئولية ذلك ؟ إنها تقع على الجمهور الذى لا يهوى إلا الأفلام التهريجية ، وعلى الحكومة التى لم تبذل لها العون الكافى ، وعلى الرقابة التى تغمض العين على ما فى الأفلام من مباذل وسيئات . ولا أدرى لمصلحة من هذا الإغضاء ؟ وعلى الصحافة التى تسرف فى المدح وتسكت عن النقد الحق والتوجيه الصحيح ... ولا أفهم لماذا لم يصدر قانون حماية الملكية الأدبية حتى الآن فيمنع هذا النقل والسطو والتشويه ؟ ولماذا لا تحدد النسبة التى يتقاضاها الممثلون من الأرباح ؟ إن للسينمائيين مطالب عديدة لم تحقق لهم الدولة شيئا منها . إنهم يطلبون — فيما يطلبون — أن يلغى هذا القانون الذى يجعل منها نقابة عمالية لا فنية كنقابة الصحفيين ، ويطلبون أن يكون من أقسام وزارة الإرشاد قسم خاص للسينما يقوم على تذليل الصعوبات التى تعترضهم ، ويطلبون أن تشترى الحكومة بعض نسخ من الأفلام الممتازة فتعرضها فى المدارس والمعسكرات والمستشفيات ، ويطلبون تسهيل استيراد الأفلام الخام التى هى للسينما بمثابة الوقود للسيارة ! ويطلبون خفض الضرائب التى ترهقهم . فإذا تحقق لهم ذلك استطاعوا أن يؤدى رسالتهم نحو المجتمع وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها !

ثم وقف الأستاذ يوسف وهبي وبدأ كلامه صائحا هائجا ، فرمى الصحافة بأنها سبب البلاء ومصدر الشقاء ، واتهمها بأنها صحافة مأجورة لا تمدح إلا بأجر ولا تذم إلا بأجر ، وأنها مليئة بالعناوين (السوداء) والقارنات (العمياء) — كما يقول الأستاذ المهذب — وأنك لا تكاد تجد فيها إلا صورة لفنان أجنبي بالمجان ، أو صورة لفنان مصرى دفع ثمنها مقدما ! ... واستمر الأستاذ الفاضل

يكيل التهم للصحافة المصرية بدون حساب ، وبطريقته التمثيلية وصوته الذى يصك الآذان ، وحركاته البهلوانية التى يضحك بها على أذقان الدهماء من الناس ، فكان ذلك منه عدوانا بالغا على الصحافة الكريمة التى تبذل له ولأمثاله العون والنقد والتوجيه السديد

ولكنه تخاذل وضعف وانبهر أنفاسه وخفت صوته عندما انبرى له الأستاذ عبد المنعم شميس ففند أقواله ، وفضح تهريجه ، وصاح فى وجهه بأن رجال الصحافة الذين يرميهم بهذه التهم الباطلة كانوا — من أجل دفاعهم عن الحق — يزج بهم فى غياهب السجون ويلقون أشد العذاب بينما الأستاذ يوسف وهبى يرفل فى الحرير ويركب أفخر السيارات ! وأن هؤلاء الكتاب الأحرار كانوا الأداة الفعالة فى إيقاظ الشعب وتنبيهه إلى حقوقه بينما كان بعض رجال السينما أداة تخدير وتنويم للشعب وتلهية له عما يكبله من أغلال وذلك بما يقدمون له من رقص وتهريج .. وأن الباحث الدقيق ليجد أن هذا التهريج قد أخذ — فى العهد الجديد — يتلاشى من السينما رويدا رويدا لأن العهد الجديد لا يهدف إلى تخدير الشعب وتلهيته عن حقوقه ، وإنما يهدف إلى إيقاظه وتعريفه بهذه الحقوق .. ولقد أفلتت من الأستاذ يوسف وهبى كلمة تدل وحدها على مقدار فهمه لوظيفة السينما ! إنه سماها (صناعة السينما) والصناعة — كما تعلمون — تهدف إلى الربح الكثير والكسب الوفير ! وليس من أهدافها ترقية الإحساس والشعور والذوق ، وتعريف الناس بالمثل العليا ، ومعالجة المشكلات الاجتماعية والفساد المتغلغل فى الحياة ، وما إلى ذلك من أغراض .

إن السينما المصرية لاطابع لها حتى الآن ، ولكنها بضاعة مجلوبة من الخارج وكل عملنا فيها أن نلبسها زيا مصريا ونقول للناس إنها بضاعة وطنية ! وإن قصاراها — حتى الآن — هو الرقص الفاجر والغناء الداعر ، إنهما يحشدان فى الأفلام حشدا وبدون مناسبة ليهرع إليهما الجمهور فترتفع حصيلة الفلم وتنحدر أخلاق الناس !

ثم وقف الأستاذ أنور أحمد — عن جمهور المستمعين — فعلق على المناظرة قائلا : — إن كلمات المؤيدين — وهما الأستاذان رشيد النحال ويوسف وهبى — كانت طوافا وتحويما حول الموضوع ولم تكن من جوهر الموضوع فى شئ ! وكانت هجوما على الصحافة وهى المكافحة الأولى لكل فساد وانحلال فى مصر ... وإنه من الخير ألا نخدع أنفسنا وأن نرضى غاية الرضا عن أنفسنا فذلك ضلال بعيد . ولو أننا خدعنا أنفسنا وقلنا إن السينما المصرية قد أدت رسالتها لجمدنا ووقفنا عند الحد الذى نحن فيه اليوم وتلك نهاية لا أرضاها لكم .

إن السينما فى مصر لم تؤد رسالتها ، فابحثوا عن السبب فى ذلك ، ابحثوا عن الصعوبات التى اعترضت السينما والعقبات التى وقفت فى طريق تقدمها ، والعوامل التى قعدت بها عن أن تؤدى هذه الرسالة ... ابحثوا عن ذلك ولا يشغلنكم الجدل الفارغ فى هل أدت السينما رسالتها نحو المجتمع أو لم تؤد عن تقصى هذه الأسباب وتلمس أنواع العلاج ، وبذلك تكون خلاصة مناظرتكم اليوم هى أن السينما لم تؤد رسالتها ولكنها كافحت لتذليل الصعوبات التى تعترضها ويجب أن تتضافر الجهود على تذليل تلك الصعوبات .

وطلب الأستاذ أنور حبيب رئيس المناظرة أن تؤخذ أصوات الحضور — بالوقوف — على أى الرأيين هو الأصوب ؟ فوقفت أغلبية تؤيد الرأى القائل بأن السينما المصرية لم تؤد رسالتها نحو المجتمع ! .

على متولى صلاح

طرائف وقصص

فصل سالافان

للكاتب الفرنسي المعاصر جورج دوهامل
للأستاذ لبيب السعيد

لست أنقم من « السيد سورو » أي شيء . ولئن كنت غير راض ألبتة عن فقدي مركزي ، وهو ما علمت مركز طيب ، فإنه لم تعلق بنفسي موجدة على « السيد سورو » . أما إنه لحق . وما أدري ماذا كنت أفعل لو كنت مكانه . على أني لسوء حظي أفهم كثيراً من الأشياء

ويقتضيني الواجب أن أقول إن « السيد سورو » أبى أن يفهم ، وكان ينبغي أن أبسط له إيضاحاً ، ولكني — على حسب تفكيري المهن — أحسنت صنعاً إذ لم أشرح له شيئاً . هذا إلى أن « السيد سورو » لم يتح لي وقتاً أسترد فيه حواسي ، وأصلح فيه موقفي . لقد بدا جاداً ، وبعبارة أخرى : لقد بدا فظاً ، بل متوحشاً . ولا علينا من هذا ، فما وقع في نفسي أن أحقد عليه

فأما عن « السيد يعقوب » فأمره غير الأمر ، فلقد كان يسعه أن يقدم شيئاً أفيد منه ، ذلك أني أقمت معه خمس سنين كان يراني طوالها وأنا أعمل مصبحاً وممسياً ، وكان يعلم أني لست رجلاً غير عادي . نعم ، فلقد بلاني ، ولو أن هذا — بعد التفكير — يعني أنه لم يحط بي خبراً أبداً . ومهما يكن من شيء فقد كان يملك أن يقول كلمة ... كلمة واحدة ، ولكنه لم يقلها . ولا والله ما ألومه ؛ فإن له زوجة وأولاداً ، وإن له سمعة لا يمكنه التهاون فيها . على أن الحق كل الحق أني لو أذعت ما أعلمه عن السيد يعقوب ، لقلت شيئاً ... ولكن ، لينم هادئ البال فلن أقول شيئاً

إنه خذلني ، فلم ينصرني ولم ينقذني ، ومع هذا فصدري ليس به غل له هو الآخر . لقد أحاطت بي مجموعة ملابسات جد ناصبة ، ولكن لنذهب الآن إلى أني وحدي أزر كل الوزر ، فالدنيا هي ما قد علمت وما أرى نفسي ، بل أقر أني ارتكبت خطيئة ، وبيان هذا بعد حين

لقد تقضى على هذه المغامرة زمن متطاول ، وما كنت لأتكلم عنها لو لم توقظ في ذكريات ممضة . ولقد وقعت لي منذ ذلك الحين وقائع تنسيني بعض التفاصيل ، ولا بد لي أن أسترعي نظرك إلى أني في مدى خمس سنين لم ألق « السيد سورو » غير ثلاث مرات ، وهذا قليل . والسبب أن مؤسسة « سوك وسورو » عظيمة الشأن ، وليس في إمكان سادتها أن يتصلوا بمستخدميها الألفين الذين يشتغلون لديهم . أما في صدد اختصاص عملي فلم تكن له صلة بالإدارة

وذات صباح ، أخذ التليفون يصيح ، ولست أدري أتثيرك النواقيس والأجراس الكهربية والأجهزة الأخرى التي من هذا النوع الجهنمي ، فأما أنا فقد وطنت نفسي لها ، وإن كان حسبي لإشقاء حياتي أن يوجد جرس كهربي حيث أكون . ولهذا السبب ولا شيء غير هذا السبب أجدني في بعض اللحظات أهنئ نفسي على أني تركت العمل في المكاتب . إن صوت الجرس ليس كالأصوات ، وإنما هو مثقاب يخترق الجسم فجأة ، ويودي بالأفكار ، ويقف كل شيء حتى دقات القلب . وذلك مالا قبل لإنسان أن يألفه

هذا جرس التليفون يدق ، فكل من في المكتب يرعبه سمعه ولو لم يظهر عليه الاهتمام . ويكف الصياح ، وينتظر الجميع . ولست أشد من غيري عصبية ، ولكن هذا الانتظار هو الآخر عذاب ، فكل يرتقب ليعرف

أوراء الصيحة صيحة أخرى . فاذا كانت واحدة فالطلوب هو « السيديعقوب » ، وإن كانتا اثنتين فهما على «بفلج» السويسرى ، فأما أنا فكانت تناديني ثلاث صيحات . ومنذ تركت المكتب وهذه الثلاث تنادى «أودن» الذى كان على عهدى يجيب على أربع .

و«أودن» هو الآخر ليس عصبيا ، وهو منذ الصيحة الأولى يأخذ فى أكل أنامله من غير أن يبدو عليها شيء وقد انتهى به الأمر إلى أن أصيب بـ «دوحس» فى ظفره .

وفى ذلك اليوم ، بعث الجرس رنة واحدة ليس غير ، رنة واحدة طويلة مستقيمة مثيرة بقوة تأكيدها .

وبرز «السيد يعقوب» من وراء حاجزه النصفى ، برز من هذا المخبأ الذى يلزمه كما يلزم حصان السباق صندوقه وأمسك «يعقوب» بسماعة التليفون ، وكما هى عادته استند إلى الجدار ملصقا به رأسه الذى خلف شعره بتوالى الأيام بقعة دهنية على الحائط .

ويبدأ الحديث ، وأنصت إلى بعضه ، وهو دائما يثير العجب ، فثمة رجل طيب يتحدث إلى اللاوجود ، ويبتسم له ، ويلقى إليه بالملق . رجل ينظر فجأة وبامعان إلى الطلاء البنى على الحائط كأنما يبصر شيئا عجبا .

ومع هذا ففى ذلك اليوم لم يبتسم « السيد يعقوب » فى حديثه ، ولم يتملق محدثه . ومنذ الكلمات الأولى كانت تتخايل عليه أمارات القلق ، وقد دبت الحمرة إلى وجهه ، وما لبث أن رمى ببصره إلى أسفل ، متطلعا إلى المدفأة التى كانت قابعة فى ركنها كأنها كلب غاضب .

أما أنا فكنت أرى قلما ، وما بى حاجة إلى أن أقول لك إنى كنت أكسر رصاصة القلم ما بين ثانية وأخرى . وكان يتناهى إلى صوت « السيد يعقوب » وهو يتمتم : « ولكن يا سيدى ... ولكن يا سيدى » وكنت أقول فى نفسى : « لئن لم ينته من تكرار قوله : « ولكن يا سيدى ... » لألطمنه لطمة يدوى صوتها « بان .. » ولأدفعن رأسه إلى الجدار »

غير أنى كثيرا ما أحدث نفسى بأشياء من هذا الطراز ولكنى فى الحق رجل رزين الحصاة ، ولست أستجيب أبدا لشىء مما أحدث به النفس . وإنك لتعلم علم اليقين أنى ما كنت لألطمه

وقد كنت لا أزال أكسر رصاص قلمى ، وأوسخ أطراف أصابعى . وكان « السيد يعقوب » يذكرنى بهؤلاء الروحانيين الذين يدعون الاتصال بالأشباح ، مستدلين بهذا الاتصال على أن للأشباح نوعا من الوجود . وأثناء الصمت الغالب كان ينبعث أزيز متهدج كأنما يتهادى من نهاية العالم . وكنت أتبين فى هذا الأزيز رويدا رويدا جلبة صوت متقطع

وترك السيد يعقوب الجهاز بغتة ، وظل يتحسس حلقة التليفون أكثر من عشر مرات حتى تمكن من وضع السماعة ، وكنت بلغت من الغضب غايته ، ولكن ذلك ظل خافيا تطلعا وانتهيت إلى صنع طرف جيد لقلمى ، ومسحت أصابعى فى أسفل بنطلونى حيث لا تظهر علامات الرصاص

انقلب « السيد يعقوب » إلى صندوقه ، وفتح بعض الأضابير ، وأمسك ببعض الأوراق ، ثم صاح فجأة :

— سالافان ... تعالى لحظة

كنت متوقعا ذلك ، فنهضت مطيعا ، ووجدت السيد يعقوب ينزع شعرات من أنفه ، وهذا عنده دليل قوى على القلق ، وقال لى :

— دونك هذه الكراسة ، فاحملها بنفسك إلى « السيد سورو » ، ستلقاه فى مكتبه بالإدارة ، فأبلغه أنى متوعك

وأمسك عن الكلام ، ثم صرف بصره تلقاء النافذة ، وغمز بعينه لأنه انتزع مرة طويلة من أنفه ، ووضع الشعرة على ورقة النشاف ، وأضاف وهو يحس رغبة شديدة فى العطاس ، وهى رغبة جعلت عينيه تمتلآن بالدمع :

— إمض يا سلافان ؟ أسرع

ولبلوغ مكتب « السيد سورو » ، لا بد من اجتياز عدة أجنحة من المبنى ، وفى الصيف عندما تكون النوافذ مفتحة ، وعندما تتثاءب الأبواب متأرجحة أمام النسيم ، يلحظ الإنسان أقساما مختلفة ، بعضها فوق بعض ، والرجال فيها يعملون

وفى الردهة المؤدية إلى مكتب « السيد سورو » يقف أحد السعاة فى بزته الرسمية وجوربه الأبيض ، وقد سألنى عن مهمتى ، وأدخلنى حجرة فسيحة وهو يخافت بقوله : « إنك منتظر »

عرفت توا مكتب «السيد سورو» الذى لم أكن رأيته إلا مرة واحدة ، ذلك أن رؤيتى للسيد سورو فى المرتين السالفتين كانت فى قسمنا

وقد رأيت أستارا من القماش الأزرق ، ولوحات بلون النبيذ ، وطالعنى فى أحد أركان الغرفة رسم قطاعى للآلة الدارسة « سوك دسورو » والأوسمة التى ظفرت بها فى المعارض

أما هو فقد كان هناك ، ولملك تعرفه ، وتعرف أنه لا يزال يحتفظ بجانب من حميا شبابه ، وأنه فارع القامة ، حليق شعر الوجه ، وله شارب كأنه الفرجون ، وذقن حادة التدبب ، وشعر كله تقريبا بلون الرماد ، وتحت جبهته منظار دائم الارتعاش لأنه لا يضم غير قطعة صغيرة من الجلد

ونظر إلى « السيد سورو » طولا وعرضا ، وقال لى فى اختصار

— امن قسم التحرير انت؟ وماذا يفعل السيد يعقوب؟

— إنه متعب

— آه ! هات !

وظللت واقفا فى مواجهة المكتب الكبير الامبراطورى الطراز ، وكنت لا أعرف أيهما أحرى بى أن أضم قدمى وأقف ممتدلا أو أن أتخذ وضع الجندى فى حركة الراحة

ويجب أن أعترف لك أنى قطعت العمر فى مؤسسة « سوك وسورو » متوحدا منفردا ، وكنت لا أميل إلى المناسبات التى تنأى بى عن عملى ومألوفى ، وكان اختصاصى هو تصحيح النصوص لا المثول بين واحد من أمراء الصناعة

ولذلك كنت فى هذه الساعة ألعن « السيد يعقوب » وطفقت أدير له فى ذهنى بعض العبارات التى كنت أتفنن فى سوغها والتى لم أنبس بها حتى النهاية . وقد كنت أحمل هم جسمانى الذى لم أكن أعرف ماذا أفعل به ، فكنت أحس بعض عضلاتى تتقلص فى وضع يضايق باقى العضلات ، وكنت أشعر شعورا غريبا بأن شكلى يؤلف أضحوكة ضخمة ، ليس بوجهى فحسب ، ولكن أيضا بصدرى ، ثم بأعضائى ، ثم أخيرا بجسدى كله

ومن توفيق الجد أن « السيد سورو » لم يلحظنى ، وكان يقلب فى الكراسة التى قدمتها إليه ، وكان يبدو أنه يعانى غضبا ثقيلا استطاع أن يكظمه

وفجأة ، وضع سبابته على الصفحة ، وقال من غير أن يرفع أنفه :

— خط ردئ لا يكاد يقرأ . ما هذه الكلمة ؟

فتقدمت آليا أربع خطوات إلى الأمام ، وانحنيت ، وقرأت فى غير حبسة وبصوت جهير . «خير أكثر مما يلزم» . وقد وضعتنى حركتى هذه إلى جوار السيد سورو ، وفى متناول الذراع اليسرى لمقعده

هنالك فحسب ، لاحظت أذنه اليسرى ، وإنى لأصدقك حين أقرر لك أن الأمر لم يعد أن يكون عاديا ؛ فهذه الأذن كانت أذن رجل من النوع الدموى قليلا ، أذنا كبيرة بها شعرات ، وتخللها بقع بلون النبيذ . ولست أعرف على الحقيقة ماذا حملنى على التطلع فى اهتمام بالغ إلى هذا الركن من إهاب سورو . ولقد تضخم اهتمامى هذا حتى صار بعد هنيهة أمرا شاقا . كان هذا الجزء أقرب شئ منى ، ولكنه بدا لى أبعد شئ عنى وأغرب شئ لى .

وأعملت فكرى قائلا فى نفسى : ذاك جلد آدمى ، وإن من الناس من يعتبرونه شيئا طبيعيا جدا ، وإن منهم من يعتبر لمسه أمرا مألوفا

وتتابعت على خاطرى صور شتى ، ووجدتنى عفو الساعة أحرك ذراعى اليمنى قليلا تتقدمه سبابتى ، وأدركت حالا أن بى نزعة إلى وضع إصبعى على أذن « السيد سورو »

وفى تلك اللحظة زجر الرجل الضخم ، وغير رأسه من وضعه ، فعرانى لذلك غضب ، وعرتنى فى الوقت نفسه راحة ؛ بيد أنه عاد إلى القراءة ، فشعرت بذراعى تعاود التحرك فى رفق

كنت بادئ الرأى خجلان أنكر على يدى ماتشتهيه من لمس أذن السيد سورو ، ولكنى شعرت تدريجا أن عقلى يطيب لهذه الحركة ويقرها . ولأسباب كثيرة كانت تبدو لى غامضة مبهمة . كان لزاما على أن ألمس أذن « السيد سورو » لأثبت لنفسى أن هذه الأذن ليست شيئا ممنوعا أو منعدم الوجود أو خياليا ، ولأنى أنها ليست لحم آدمى مثل أذنى أنا نفسى

وبغتة ، مددت ذراعى بطولها ، ووضعت سبابتى بمنتهى اللطف والرقة ... وضعتها حيث أحببت . فوق لوبة الأذن بقليل ، على هذا الجزء من الجلد الأحمر بلون الآجر

سيدى ! لقد سيم « دميان » العذاب لأنه صوب مديته إلى الملك لويس الخامس عشر ، وإن تعذيب رجل لظلم مخز . على أن « دميان » نال الملك ببعض الأذى والمساءة ، فأما أنا فأقولها لك أكيدة إنى لم أضر « السيد سورو » شيئا ، ولم تختلج هامة نفسى بأن أنعمده بأى شر . وقد تقول لى إنهم لم يعذبونى ، والصدق ما تقول إلى حدما

لم أكد ألمس أذن « السيد سورو » بطرف سبابتى بكل رفق حتى كان هو وكرسيه يثبان إلى الخلف ، ولا بد أنى كنت وقتها شاحب اللون قليلا ، فأما هو فقد استحال لونه إلى الزرقة كما يقع لمرضى فقر الدم حينما يشحب لونهم ثم أقبل من فوره على درجه فأخرج منه مسدسا .

تسمرت ووجمت ، فقد شعرت أنى جئت شيئا نكرا وكنت كليلا لا يضئ لى عقل ولا يستقيم لى رأى

ووضع « السيد سورو » المسدس على النضد بيد ترتعش فى قوة جملته يحدث صوتا كصوت اصطكاك الأسنان ، وصرخ « السيد سورو » ... صرخ ...

لست أعرف على وجه الدقة ماذا جرى ، فقد تلقانى عشرة من فراشى المكتب ، وجرونى إلى غرفة مجاورة ، وهناك نزعوا عنى ثيابى ، وفتشونى ، ثم ما لبث أن استعدت ثيابى ، وجاءنى رجل بقبعتى ، وأنهى إلى أنهم رغبون فى كتمان الأمر على أن أخرج من المؤسسة فورا وأوصلونى إلى الباب

وفى الغداة ، حمل إلى « أودن » ما كنت أستعمله فى مكتبى من أداة وأشياء خاصة

تلك هى القصة الحزينة التى أكره أن أقصها لأنى لا أستطيع ذلك دون أن يساورنى ضيق هو فوق التعبير

لبيب السعيد